فضيلة الشيخ عبد الرحمن الدوسري




# اثاره ومفاهيمه

# النِّفَاقُ

## آثَارُهُ وَمَفَاهِيمُهُ

ت : ٢٣١٨٥٦٦ ــ ص. ب. ٢٠٥٩٥
الرياض ــ المملكة العربية السعودية

**الطبعة الثانية**

**١٤٠٤ هـ**

**يطلب من : مكتبة الرشد للنشر والتوزيع**

**الرياض ــ طريق الحجاز مقابل بنك الرياض ــ ت ٤٥٨٣٧١٢**

**ص. ب. ١٧٥٢٢**

الكِتابُ الأول من مجموعة الشيخ الدوسري

# النِّفاق

## آثاره ومفاهيمه

بقلم

فضيلة الشيخ عبد الرحمن الدوسري

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

# تقـديـــم

بقلم الأستاذ سعيد محمود

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على رسوله الكريم المبعوث رحمة للعالمين وعلى آله وصحبه الكرام الطيبين وبعد.

المنافقون هم شركاء الشياطين في الإغواء والدس والتخريب، وما أكثرهم في كل زمان ومكان، عملوا قديماً على الوقوف بوجه الدعوة الإسلامية وعرقلة مسيرتها تلبية لحقد في نفوسهم وكراهية للإسلام والمسلمين، هذا الحقد وتلك الكراهية ناجمين عن حقد وكراهية للخير والنجاح، يعملون بكل ما أوتوا من قوة لتفريق الصف وقتل وحدة المسلمين، يستغلون أبشع الطرق وأرخصها للوصول إلى منافعهم الخاصة، متجردين من كل مثل أو قيم. وقد أصبح موقفهم هذا خطراً على الدين والمجتمع، لأنهم تسللوا إلى كل مكان دسّهم أسيادهم فيه، حيث نفذت اليهودية وأعوانها من عيونهم وأنوفهم وألسنتهم التي سخروها لها ووظفوها شياطين ملعونةً تخدش ضمائر المؤمنين وتوقع العداوة والبغضاء

بينهم. عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (**آية المنافق ثلاث، إذا حدّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اتمن خان**)[1] فالرسول الكريم كشفهم ووصفهم بما يستحقونه من وصف يكللهم بالذل والعار، فهم كذّابون يصرون على الكذب ديناً لهم وسبيلاً، وهم خدّاعون منهزمون في داخلهم لا عهد لهم ولا ذمة، وهم خونة مفرّطون لأن ضمائرهم منخورة ميتة، وهم أحط الخلق وأبعدهم من رحمة الله، ولذلك جمعهم الله إلى الكافرين في نار جهنم خزياً لهم وعقاباً أليما، واستحقوا غضب الله وجحيمه، وكراهية رسوله، واحتقار المؤمنين.

قال الله تعالى في كتابه الكريم ﴿ **إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا** ﴾[2]. وقد أدرك الشيخ عبد الرحمن الدوسري — رحمه الله — خطورة سلوكهم هذا فتوسع بالحديث عنهم عند شرحه لسورة البقرة في تفسيره الكبير (صفوة الآثار والمفاهيم..) وعند نهوضه لشرح آيات أخرى تتعلق بالمنافقين جاءت ضمن مقالات عديدة متنوعة كان يعرج من خلالها على ذكر المنافقين كلما دعته الضرورة إلى الاستشهاد بهم وفضح أدوارهم.

ومنذ سنوات (١٤٠٠ هـ) جمع ما قدمه الشيخ من شرح لآيات البقرة التي تتناول المنافقين وصدر في كتاب هو (النفاق.. آثاره ومفاهيمه) وقد ضم الأستاذ الفاضل محمد سرور

(١) الجامع الصحيح ٥٦/١

(٢) النســاء ١٤٥.

زين العابدين شيئاً إلى الكتاب بعنوان (مساجد الضرار بين القديم والحديث) فجزاه الله خيرا لأنه أراد من إضافته تلك مزيداً من الكشف لحقيقة المنافقين والتأكيد على فضحهم وتعريتهم... ولكن الكتاب لقي بعض المعارضة لأنه ضم شيئاً بداخله لغير الشيخ الدوسري، وعندما فكرنا بطبع الكتاب مرة ثالثة ــ بعد نفاده ــ رأينا أن نزيل هذا الاعتراض ــ محتفظين للأستاذ زين العابدين بالشكر الجزيل داعين الله له بالأجر والثواب ــ فرفعنا ما أضيف للكتاب واستفدنا مما قدمه لسان العرب وغيره من تعريف للنفاق لغة وشرعاً ــ وأشرنا إلى ذلك ــ ثم رحنا ننقب في آثار الدوسري ــ رحمه الله ــ المطبوعة والمخطوطة واستخرجنا ما ورد في ثناياها عن النفاق والمنافقين لنضمه إلى الكتاب كتعويض عما ذهب منه، وقد وفقنا الله سبحانه وتعالى إلى العثور على بعض آيات من النساء كان الشيخ قد شرحها، وآيات من التوبة وردت في مقالات أخرى عند حديث الشيخ عن الصلاة، والمجتمع ومعاناته، وفي بعض خطبه، فنسقناها وأضفناها إلى الكتاب تحت عنوان (آيات أخرى تسلط الضوء على المنافقين) آملين أن تكتمل الفائدة وتوضح الصورة.. صورة فئة انحرفت عن الطريق المستقيم فضلت وأضلت، سائلين المولى عزّ وجل أن يجنبنا مواطن الزلل، ويحمينا من غدر الغادرين ويهدينا سواء السبيل.

# تعريف النفاق

## ١ ـ النفاق لغة

النفق : سرب في الأرض مشتق إلى موضع آخر ـ وفي التهذيب ـ له مخلص إلى مكان آخر. والنفقة والنافقاء جحر الضب واليربوع، وقيل النفقة والنافقاء موضع يرقة اليربوع من جحره فإذا أتي من قبل القاصعاء ضرب النافقاء برأسه فخرج، ونفق اليربوع ونفق وانتفق ونفّق خرج منه.

وذهب ابن الأعرابي فقال : قصعة اليربوع أن يحفر حفيرة ثم يسد بابها بترابها، ويسمى ذلك التراب الدامّاء، ثم يحفر حفراً آخر يقال له النافقاء والنُفَقَه والنَفَق فلا ينفذها ولكنه يحفرها حتى ترق فإذا أخذ عليه بقاصعائه عدا إلى النافقاء فضربها برأسه ومرق منها، وتراب النُفَقَة يقال له الراهطاء.

وقال الأصمعي في القاصعاء إنما قيل له ذلك لأن اليربوع يخرج تراب الجحر ثم يسد به فم الآخر من قولهم قصع الكلم بالدم إذا امتلأ به، وقيل له الدامّاء لأنه يخرج تراب الجحر ويطلي به فم الآخر من قولك ادمم قدرك أي اطلها بالطحال والرماد، ويقال نافق اليربوع اذا دخل في نافقائه، وقصّع إذا خرج من القاصعاء، وتنَفَق خرج.

وقال أبو عبيد : سمي المنافق منافقاً للنفق وهو السرب في الأرض، وقيل إنما سمي منافقاً لأنه نافق كاليربوع وهو دخوله نافقاءه. يقال قد نفق به ونافق جحراً آخر يقال له القاصعاء فإذا طلب قصَّع فخرج من القاصعاء فهو يدخل في النافقاء ويخرج من القاصعاء أو يدخل في القاصعاء ويخرج من النافقاء فيقال له هكذا يفعل المنافق يدخل في الاسلام ثم يخرج منه من غير الوجه الذي دخل فيه.

وتحدث أبو زيد عن الأصل اللغوي لكلمة نفق ومما قاله : نفَّق اليربوع تنفيقاً ونافق أي دخل في نافقائه ومنه اشتقاق المنافق في الدين، والنفاق بالكسر فعل النافِق، والنفاق الدخول في الاسلام من وجه والخروج عنه من آخر مشتق من نافقاء اليربوع، وقد تكرر في الحديث ذكر النفاق وما تصرف منه اسماً وفعلاً، فهو اسم اسلامي لم تعرفه العرب بالمعنى المخصوص به وهو الذي يستر كفره ويظهر إيمانه وإن كان اصله في اللغة معروفاً يقال نافق ينافق منافقة ونفاقاً وهو مأخوذ من النافقاء لا من النفق وهو السرب الذي يستتر فيه لستره كفره[1].

**متى بدأ النفاق ؟**

تحدث ابن كثير عن بداية النفاق فقال : نزلت صفات المنافقين في السور المدنية لأن مكة لم يكن فيها نفاق بل كان خلافه من الناس من كان يظهر الكفر مستكرها وهو في الباطن

(١) لسان العرب لابن منظور فعل نفق ١٢/٢٣٥.

مؤمن، فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة وكان بها الأنصار من الأوس والخزرج وكانوا في جاهليتهم يعبدون الأصنام على طريقة مشركي العرب وبها اليهود من أهل الكتاب على طريقة أسلافهم، وكانوا ثلاث قبائل بنو قينقاع حلفاء الخزرج وبنو النضير وبنو قريظة حلفاء الأوس، فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة وأسلم من أسلم من قبيلتي الأوس والخزرج، وقل من اسلم من اليهود إلاّ عبد الله بن سلام رضي الله عنه، ولم يكن إذ ذاك نفاق أيضا لأنه لم يكن للمسلمين بعد شوكة تخاف بل قد كان عليه الصلاة والسلام وادع اليهود وقبائل كثيرة من أحياء العرب حوالي المدينة، فلما كانت وقعة بدر العظمى وأظهر الله كلمته وأعزّ الاسلام وأهله، قال عبد الله بن ابيّ بن سلول وكان رأساً في المدينة وهو من الخزرج، وكان سيد الطائفتين في الجاهلية وكانوا قد عزموا على أن يملكوه عليهم فجاءهم الخير وأسلموا واشتغلوا عنه فبقي في نفسه من الإسلام وأهله، فلما كانت وقعة بدر قال : هذا أمر قد توجه فأظهر الدخول في الإسلام ودخل معه طوائف ممن هو على طريقته ونحلته وآخرون من أهل الكتاب. فمن ثم وجد النفاق في أهل المدينة ومن حولها من الأعراب، فأما المهاجرون فلم يكن أحد يهاجر مكرها بل يهاجر فيترك ماله وولده وأرضه رغبة فيما عند الله في الدار الآخرة.(١)

---

(١) تفسير ابن كثير ٤٧/١

ــ وروى مسلم في صحيحه أن النبي ﷺ ركب حماراً عليه إكاف تحته قطيفة مدكيّة وأردف وراءه أسامة وهو يعود سعداً بن عبادة في بني الحارث بن الخزرج وذاك قبل وقعة بدر حتى مر بمجلس فيه أخلاط من المسلمين والمشركين عبدة الأوثان واليهود وفيهم عبد الله بن أبيّ ــ وفي المجلس عبد الله بن رواحة ــ فلما غشيت المجلس عجاجة الدابّة خمّر عبد الله بن أبيّ أنفه بردانه، ثم قال : لا تغبّروا علينا، فسلم النبي ﷺ ثم وقف فنزل فدعاهم إلى الله وقرأ عليهم القرآن، فقال ابن أبيّ : أيها المرء لا أحسن من هذا إن كان ما تقول حقاً فلا تؤذنا في مجالسنا وارجع إلى رحلك فمن جاءك منا فاقصص عليه، فقال عبد الله بن رواحة : اغشنا في مجالسنا فإنا نحب ذلك، قال : فاستبّ المسلمون والمشركون واليهود حتى هموا أن يتواثبوا، فلم يزل النبي يخفّضهم ثم ركب دابته حتى دخل على سعد بن عبادة، فقال : أي سعد ألم تسمع إلى ما قال أبو حباب « يريد ابن أبيّ » قال كذا وكذا، قال : اعف عنه يا رسول الله واصفح فوالله لقد أعطاك الله الذي أعطاك ولقد اصطلح أهل هذه البحيرة أن يتوجوه فيعصبوه بالعصابة فلمّا ردّ الله ذلك بالحق الذي أعطاكه شَرِق بذلك، فذلك فعل به ما رأيت. فعفا عنه النبي ﷺ[1].

نعم، لقد كان ابن أبي كافراً وظل كافراً مصرحاً بكفره بُعَيد دخول الرسول ﷺ المدينة، وربما كان يرى في نفسه وفيمن

---

(١) صحيح مسلم شرح النووي ــ كتاب الجهاد والسير ١٢/١٥٧.

حوله القوة وأن لا خطر من هذه الفئة القليلة وأنصارها خاصة وأنها جاءت المدينة فقيرة مستضعفة تريد النجاة إذ لا قبل لها بتجمع أكبر وأشد، وفاته أنها جاءت تريد كسر الأسوار التي ضربت حول الدين من عتاة الكفرة.. تريد مجالاً أوسع وساحاً أرحب لنشر الدين ودفع الرسالة إلى كل ركن من أركان المعمورة. وظل ابن أبيّ غارقاً في وهمه هذا وأحلامه في الملك والتاج حتى كانت معركة بدر، عندها جحظت عيناه وأدرك الحقيقة المرة في أن الإسلام أصبح قوة بمسلميه لن تنال منه قوة يتآمر معها طالما انهزمت أمامه أعتى قوى الكفر والطغيان في أرض العرب، فأعلن إسلامه وراح يظهر خلاف ما يبطن، فيتآمر ويدس ويساهم بتأليب الناس وتجميع القوى ضد الرسول وأصحابه، لعل وعسى..، ــ والرسول ﷺ يعلم ذلك ويصفح ــ حتى كانت غزوة أحد وبني المصطلق فسقط القناع، وانهارت آماله دفعة واحدة فدخل المدينة ذليلاً مفضوحاً كسير الجناح لينكمش بعدها وينهار ثم لتتبدد آماله وأحلامه كلها دفعة واحدة حينما علت سيوف المؤمنين رؤوس المخططين له من يهود بني قريظة والنضير وحلفائه من بني القينقاع.

قال أبو اسحاق في قصة بني المصطلق : ــ فبينا رسول الله ﷺ مقيم هناك اقتتل على الماء جهجاه بن سعيد الغفاري ــ وكان أجيراً لعمر بن الخطاب ــ وسنان بن يزيد، فقال سنان : يا معشر الأنصار، وقال الجهجاه : يا معشر المهاجرين، وزيد بن أبي أرقم ونفر من الأنصار عند عبد

الله بن أبيّ، فلما سمعها قال : قد ثاورونا في بلادنا والله ما مثلنا وجلابيب قريش هذه إلاّ كما قال القائل : سمن كلبك يأكلك، والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، ثم أقبل على من عنده من قومه وقال : هذا ما صنعتم بأنفسكم أحللتموهم بلادكم، وقاسمتموهم أموالكم، أما والله لو كففتم عنهم لتحولوا عنكم من بلادكم إلى غيرها، فسمعها زيد بن أرقم رضي الله عنه فذهب بها إلى رسول الله ﷺ ـــ وهو غليم ـــ وعنده عمر بن الخطاب رضي الله عنه ـــ فأخبره الخبر، فقال عمر : يا رسول الله مر عباد بن بشر فليضرب عنقه، فقال رسول الله :

« فكيف إذا تحدث الناس يا عمر أن محمداً يقتل أصحابه، لا، ولكن ناد يا عمر : الرحيل، فلما بلغ عبد الله بن أبي أن ذلك قد بلغ رسول الله أتاه فاعتذر إليه، وحلف بالله ما قال الذي قال زيد بن أرقم، وكان عند قومه بمكان، فقالوا : يا رسول الله عسى أن يكون هذا الغلام : أوهم ولم يثبت ما قال الرجل، وراح رسول الله ﷺ مهجراً في ساعة كان لا يروح فيها، فلقيه أسيد بن الحضير رضي الله عنه، فسلم عليه بتحية النبوة، ثم قال : والله لقد رحت في ساعة مبكرة ما كنت تروح فيها، فقال رسول الله : « أما بلغك ما قال صاحبك ابن أبيّ ؟ زعم أنه إذا قدم المدينة سيخرج الأعز منها الأذل »، قال : فأنت يا رسول الله العزيز وهو الذليل، ثم قال : أرفق به يا رسول الله، فوالله لقد جاء الله بك، وإنا لننظم له الخرز لنتوجه، فإنه ليرى أن قد سلبته ملكاً، فسار رسول الله ﷺ بالناس حتى أمسوا وليلته

حتى أصبحوا، وصدر يومه حتى اشتد الضحى، ثم نزل بالناس ليشغلهم عما كان من الحديث، فلم يأمن الناس أن وجدوا مس الأرض فناموا، ونزلت سورة المنافقين.(١)

ـــ وقال محمد بن اسحاق : حدثني عاصم بن عمر بن قتادة أن عبد الله بن عبد الله بن أبيّ لما بلغه ما كان من أمر أبيه أتى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله إنه بلغني أنك تريد قتل عبد الله بن أبيّ فيما بلغك عنه، فإن كنت فاعلاً فمرني به، فأنا أحمل إليك رأسه، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبر بوالده مني، إني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل عبد الله بن أبيّ يمشي في الناس، فأقتله فأقتل مؤمنا بكافر فأدخل النار، فقال رسول الله ﷺ : « بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا »(٢). وذكر عكرمة أن الناس لما قفلوا راجعين إلى المدينة وقف عبد الله بن عبد الله على باب المدينة واستل سيفه، فجعل الناس يمرون عليه، فلما جاء أبوه عبد الله ابن أبيّ قال له ابنه : وراءك، فقال : مالك ويلك ؟ فقال : والله لا تجوز من هنا حتى يأذن لك رسول الله، فإنه العزيز وأنت الذليل، فلما جاء رسول الله شكا إليه عبد الله ابنه، فقال ابنه عبد الله : والله يا رسول الله لا يدخلها حتى تأذن له، فأذن له رسول الله ﷺ فقال : أما إذا أذن لك رسول الله فجز الآن.(٣)

---

(١) مختصر ابن كثير ﻫ٢ ص ٥٠٤ ـــ ٥٠٥

(٢ ـــ ٣) مختصر ابن كثير ص ٥٠٦

## ٢ ــ النفاق شرعاً

قال ابن جريج : المنافق يخالف قوله فعله وسره علانيته، ومدخله مخرجه، ومشهده مغيبه.

وقال ابن كثير، النفاق هو أظهار الخير واسرار الشر وهو أنواع : اعتقادي وهو الذي يخلد صاحبه في النار، وعملي وهو من أكبر الذنوب[١].

وقد قسم ابن القيّم الكفر خمسة أقسام :

١ ــ كفر تكذيب ــ ٢ ــ وكفر استكبار وإباء مع التصديق ــ ٣ ــ وكفر أعراض ــ ٤ ــ وكفر شك ــ ٥ ــ وكفر نفاق[٢].

وقال ابن تيمية : النفاق كالكفر، ولهذا كثيراً ما يقال : كفر ينقل عن الملة، وكفر لا ينقل، ونفاق أكبر، ونفاق أصغر.[٣].

وقال الكرماني : إن النفاق علامة عدم الإيمان، أو ليعلم منه أن بعض النفاق كفر دون بعض. والنفاق لغة مخالفة الباطن

---

(١) تفسير ابن كثير ٤٧/١ ــــ

(٢) مدارج السالكين لابن القيم.

(٣) فتادى ابن تيمية ٥٢٤/٧ مطابع الرياض.

للظاهر، فإن كان في اعتقاد الايمان فهو نفاق الكفر وإلاّ فهو نفاق العمل ويدخل فيه الفعل والترك، وتتفاوت مراتبه.[1].

ـ وبعد هذا ندخل في رحاب القرآن الكريم، مبتدئين بسورة البقرة لنرى حكم الله في المنافقين الذي يفوق كل حكم ورأي لأنه المصدر الذي بنيت عليه كل الآراء فيهم، والله سبحانه وتعال هو الأقدر والأعلم في كشف النفاق والمنافقين وفضحهم أمام خلقه ولطخ وجوههم بالعار والنار جزاء يستحقونه على الفساد في الأرض، والكيد لعباد الله ورسوله ودينه.

(١) فتح الباري بشرح البخاري لابن حجر ١/٩٦آ

# المنافقون في القرآن

أكثر الله في وحيه المبارك من ذكر أوصاف المنافقين لخطورتهم على كل مجتمع إسلامي ، فاقتضت حكمة الله كشف أسرارهم وهتك أستارهم وبيان دفائن نفوسهم ، وقد اشتملت أوائل سورة البقرة على ذكر ركائز خبثهم في اثنتي عشرة آية حيث قال ؛ :

﴿ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين . يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون﴾ .

قال قتادة :

« هذه الآية نعت المنافق ، يعرف بلسانه وينكر بقلبه ، ويصدق بلسانه ويكذب بعمله ويصبح على حال ، ويمسى على غيرها ، ويتكفأ تكفؤ السفينة كلما هبت ريح هب معها » ا . هـ .

إن حقيقة المنافقين ـ كما صورها الله ، مما يشهد به واقعهم في كل عصر وبلد ـ هي صورة مخالفة لصورة المؤمن الحقيقي والكافر الواضح الصريح ، فإن الكفرة ـ على اختلاف مللهم

ونحلهم ـ كفرهم واضح صريح متسم « بالشجاعة والعناد والمكابرة » ـ سواء من كان كفره بشرك الوسائط والأنداد ، أو كان كفره بشرك التعطيل كالمقلدة للجاهلية الأولى والفراعنة ، أو كان كفره بالإنكار لله كالشيوعيين ، أو بالافتراء على الله كأهل الكتاب المحرفين ـ .

فكل هؤلاء من النوع الثاني . قد أراحوا المؤمنين بصراحتهم وظهور عداوتهم واتضاح وجوب منابذتهم ومخالفتهم في الدين بحيث لا يجنح إليهم أو يواليهم من في قلبه إيمان صحيح .

لكن مصيبة المسلمين ، ومداخل الشر إليهم هي النوع الثالث المرتدي زي الصديق والمتملق بلسانه الذي يظهر الإيمان والإعتراف بالله وتقديس رسوله والقرآن ، وهو يحمل في قلبه من الغيظ للمسلمين ما لا يقل عن غيظ الكفار أو يزيد فهذا كالمرض الفاتك في الجسم ، وهم ـ وإن كانوا في الغالب من علية القوم ـ إما بعلمهم المادي أو بمكانتهم ـ إلا أنهم لا يملكون الشجاعة التي يجرؤون بها على مقابلة الدين بالإنكار الصريح فيضطرهم الجبن إلى إظهار خلاف حقيقتهم وإلى سلوك الحذلقة بإيقاع الدس والتشكيك في بعض النواحي وفي سير ولاة المسلمين ليشككوا العامة فيهم وينتقصوا الدين بواسطتهم . وهذا شيء أجراه أسلافهم مع رسول الله ﷺ . وهم في الحقيقة مطايا اليهود في كل زمان ومكان ـ منذ ظهورهم على عهد الرسول عليه الصلاة والسلام إلى يومنا هذا ، وحتى يرث الله الأرض ومن عليها . فاليهود هم شياطينهم

وهم الذين يوجهون رؤساءهم بأنواع الفتنة التي تتناسب مع أوضاع كل مجتمع مسلم في كل عصر ومصر .

فلهذا فضحهم الله لعباده المؤمنين في سور كثيرة مبتدئاً بسورة البقرة ، فكذب الله مزاعمهم وفضح أسرارهم ، مبيناً أنهم يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم ، وأنهم ( يخادعون الله والذين آمنوا ) باعترافهم الكاذب تزلفاً إلى النبي ﷺ ـ في وقته ـ وإلى من بعده من ولاة المسلمين ليولوهم الثقة وليطمئنوا عامة المسلمين إليهم فلا يرتابون فيهم ، وبهذا يطلعون على أسرار المسلمين ودخائلهم فينقلونها إلى الكفار من اليهود وأعوانهم . ويستفيدون منها لقضاء مآربهم الدنيئة .

وقد أعتبر الله مخادعتهم للمؤمنين مخادعة له ولهم . وهذا تفضل كريم من الله سبحانه وتعالى نجده يكرره في وحيه المبارك ، وهو حقيقة الصلة الكاملة بين الله وعباده المؤمنين ، إذ يجعل صفّهم صفه دائماً وشأنهم شأنه ، فيعتبر المخادع لهم مخادعاً له ، والمعادى لهم معادياً له ، والمحارب لهم محارباً له إعلاماً منه سبحانه للمؤمنين برفعة مقامهم وعلوّ شأنهم عنده ، لتمتلىء قلوبهم بمحبته والطمأنينة لوعده والثقة بنصره .

أخرج ابن سعد عن حذيفة أنه قيل له ما النفاق قال : أن يتكلم بالإسلام ولا يعمل به . قال المحققون من المفسرين : إن تقديم الخبر في هذه الآية « في قلوبهم مرض » للاشعار بأن المرض مختص بها مبالغة في تعلق هذا الداء بتلك القلوب لما كانوا عليه من شدة الحسد وفرط العداوة .

( قلت ) إن رؤساءهم في كل عصر وبلد يحشون قلوب أتباعهم بذلك في سائر مراحل التوجيه وأنواعه ، فالحريص على التزود من نعم الله المعنوية الروحية يحرص على حفظ جميع أوصاف الله للمنافقين في وحيه ويتدبرها ليطبق أحوال أهل زمانه فينظر هل تنطبق على أوصاف المؤمنين المصدقين للأقوال بالأعمال المرضية لله أو تنطبق على أوصاف المنافقين الشاردين عن مراد الله في كل شيء والمخالفين لسنة نبيه ﷺ في كل شيء ، ولا سيما من يتشدق بدعوى الإصلاح ويظهر الإنتقاد على غيره ، فالله أنعم علينا بنشر أوصاف كل صنف من عبيده ليظهر لنا كلا على حقيقته ، دون التباس ، فيجب أن نجعل هذه النعمة نصب أعيننا وأن لا نغفل عنها أبداً فيستزلنا عدو يظهر في ثوب صديق .

وقوله تعالى ﴿ فزادهم الله مرضاً ﴾ زيادة مرضهم يحصل بعدة أمور ، ( أحدها ) إنه كما مرضت قلوبهم بالشك وورود الشبهات عليهم في أصل الدين فان المرض يزداد كلما طرقهم خبر عن فروعه وأحكامه فيشرقوا بها ويتجدد لها شبهات في قلوبهم تزيد من مرضها .

( والثاني ) إن زيادة المرض بزيادة ما ينزل الله من وحيه بفضيحتهم وتقبيح سلوكهم .

( والثالث ) هو سنة الله في كون المرض إذا لم يعالج يزداد ويجلب مرضاً آخر والمرض المعنوي مرض القلب أفظع زيادة في الفتك من المرض الحسي فان الشبهات يجر بعضها

بعضاً حتى يتعقد صاحبها ويكون في مركب نقص وقلق نفسي وحقد ملتهب فاتك به فكما أن المؤمنين يزدادون إيماناً بقوة إخلاصهم ويقينهم فالمنافقون يزدادون ريباً وحقداً وغيظاً يزيد من مرض قلوبهم .

( والرابع ) إن زيادة المرض تحصل بتكاليف الله المتجددة وفعلهم لها مع كفرهم بها وتكليف النبي ﷺ لهم ببعض الأمور وتخلفهم عند الجالب كما يكرهونه من لومهم وزيادة فضيحتهم ، فهذا زيادة المرض لقلوبهم حسياً ومعنوياً ( ولهم عذاب أليم ) والأليم هو العذاب المستمر الموجع ( بما كانوا يكذبون ) فقد استحقوا ذلك العذاب لقبيح أفعالهم وذميم أخلاقهم من إظهار دعوى الإيمان مع إبطان الكفر والتكذيب ، وفي قوله ﴿ يكذبون﴾ إخبار بالاستمرار التجددي لكذبهم مدى الدهر .

وهذه الآية من أوضح الدلائل على تكذيب الله للزاعمين أن الله لا يعذب من عباده إلا من كفر به عناداً بعد علمه بوحدانيته وبعد تقرر صحة ما عاند ربه عليه من توحيده والإقرار بكتبه ورسله عنده ـ لأن الله قد أخبر عن الذين وصفهم بالنفاق ومخادعتهم له وللمؤمنين ـ بأنهم لا يشعرون أنهم مبطلون فيما هم عليه من الباطل وأنهم بخداعهم مخدوعون وأن لهم عذاباً أليماً بما كانوا يكذبون بزعمهم الإيمان وهم على الكفر مصرون .

وكذلك في هذه الآيات دلالة واضحة على بطلان مذهب الجهمية ومن نحا نحوهم من أن الإيمان هو مجرد التصديق

بالقول دون سائر المعاني فإن الله أخبرنا عنهم أنهم قالوا بألسنتهم ﴿آمنا بالله وباليوم الآخر﴾ ثم نفى عنهم الإيمان لانتفاء معانيه في قلوبهم وأعمالهم إذ لا بد لصحة الإيمان من اعتقاد القلب فيما ينطق به اللسان وتصديق الجوارح للسان بالإنطلاق في الأعمال الصالحة بصدق وإخلاص ، ولو كان الإيمان مجرد التصديق لنفع فرعون وغيره من الطواغيت ، وههنا فوائد .

(الأولى) يحتمل أن تكون مخادعة المنافقين لأنفسهم على بابها من اثنين ، فهم خادعون أنفسهم حيث منوها الأباطيل وأنفسهم خادعتهم حيث منتهم ذلك أيضاً فكأنها محاورة بين نفسين على معنى الخاطرين ، كقول الشاعر :

يؤامر نفسيه وفي العيش فسحة أيستربع الذوبان أم لا يطورها

(الثانية) زعم بعضهم أن المخادعة في آية المنافقين من المقلوب لأن الإنسان لا يخدع نفسه بل نفسه هي التي تخدعه وتسول له وتأمره بالسوء ، وبما أن النحويين لا يجيزون القلب إلا في الشعر على الصحيح نحال الإضطرار فإنه ينبغي تنزيه كلام الله عنه خصوصاً ما دام معناه واضحاً .

(الثالثة) مرض القلب هنا عام في الحسى والمعنوي ففي قلوبهم مرض الشكوك والشبهات المفسد لعقيدتهم وأخلاقهم وفيها أمراض حسية من الغل والحقد الملتهب والغيظ المستمر ونحوه مما يسرع في هلاكهم بأحداث أمراض فاتكة يشهد لها المنقول والمحسوس من تقرير الأطباء .

( الرابعة ) جاء في النصوص ذكر بضعة وعشرين مرضاً من أمراض القلب المعنوية وهي الرين والزيغ والطبع والصرف والضيق والحرج والختم والإقفال والاشراب والرعب والقساوة والاصرار وعدم التطهير والنفور والاشمئزاز والإنكار والشكوك والعمى والابعاد بصيغة اللعن والتأبي والحسية والبغضاء والغفلة والغمرة واللهو والارتياب والنفاق ، وكل هذه تغلب عليه وتجلب له أمراضاً حسية مهلكة لصاحبه كما أسلفنا .

( الخامسة ) سبب النفاق أغراض نفسية تجيش في الصدور وتمنع أهلها من قبول الحق وتدفعهم إلى معاداة أهله والذي يبثها ويغذيها في كل زمان ومكان هي اليهودية العالمية المفسدة لكافة المجتمعات وأول منشأ النفاق المعادى للاسلام حصل في المدينة المنورة بعد هجرة المصطفى ﷺ وارتفاع شأن الدين ثم اعتزازه في ( بدر ) أظهر أحبار يهود الضغائن للرسول ﷺ وكان عبد الله بن أبي بن أبي سلول من الخزرج مرشحاً للزعامة فلما رأى أن هذا الدين يقضي على آماله الخسيسة حمل العداوة ضده وتمالأ مع يهود فأظهر الإسلام مع رهط من قومه بمشورة يهود ليسلم من مغبة الكفر ويتفيأ من الإسلام وأهله ظلا ظليلاً فأجراهم الله على ظواهرهم لئلا يشاع أن نبيه ـ عليه السلام ـ يقتل أصحابه ولكنه فضحهم وهتك سرائرهم نعمة منه وفضلاً على عباده إلى يوم يبعثون لأنه أوضح أوصاف المنافقين المطردة فيهم إلى يوم القيامة لأن الأغراض النفسية والمطامع الدنيئة لا يخلو منها زمان ولا مكان وهي التي تورث النفاق .

ومن طبع المنافقين إثارة الشغب والقلاقل بحجة الإصلاح والعدالة وهم لا يزيدون الطين إلا بلة ، فإياك أيها المسلم المؤمن أن تنسى نعمة الله عليك فتغفل عن قراءة وحي الله الذي كشف به أوصاف المنافقين فتكون فريسة لهم يصادرون عقلك أولاً ثم يلعبون بمقدراتك ويتمالؤون مع اليهود وأعوانهم على مقدساتك وارجع إلى التاريخ تجد الغزاة من عهد ( التتار ) إلى عهد يهود هذا الزمان لم يجوسوا خلال الديار إلا بسبب المنافقين أصحاب المزاعم الخداعة .

( الفائدة السادسة ) أطلق بعض المفسرين المرض الذي في قلوب المنافقين أنه الظلمة مستشهداً بقول الشاعر :

في ليلة مرضت من كل ناحية  فما يحس بها نجم ولا قمر

وهو قريب من الصواب لأن جميع أسباب النفاق ناشئة أما من ظلمة الطبع أو ظلمة الهوى أو ظلمة الطمع أو ظلمة حب الرئاسة أو ظلمة غيرها من حاجات النفوس أو ظلمة الشبهة أو ظلمة الشهوة أو ظلمة الحقد والحسد والغواية أو غير ذلك من الظلمات المادية التي تجتمع فتكون ظلمات بعضها فوق بعض . ويشهد لهذا التفسير تمثيل الله سبحانه لهم بأنهم في ظلمات لا يبصرون صم بكم عمى ، كما ذكره في هذه السورة ، وكما ذكر تمثيلاً فظيعاً لهم في سورة النور . ولذلك إذا عرض لهم زاجر الدين دفعه ما في قلوبهم المريضة من ظلمة الغواية والهوى والشهوة والحقد والأغراض النفسية بشتى أنواع التحريفات والتأويلات الباطلة التي تزينها لهم تلك

الظلمات الراسخة في قلوبهم .

( السابعة ) بما أن الله نفى عنهم الإيمان نفياً قاطعاً على الإطلاق مؤكداً بدخول الباء في خبر ( ما ) فقال ﴿وما هم بمؤمنين﴾ أي بداخلين في جماعة المؤمنين البتة فقد يرد هنا سؤال وهو أنه فيهم من يؤمن بالله واليوم الآخر من هو في أهل الكتاب أو غيرهم من لم ينكر توحيد الربوبية أو من نشأ في الإسلام وجرته ضغائنه وأغراضه النفسية إلى النفاق ، فالجواب أن اعتقادهم التقليدي الضعيف ليس له أثر في سلوكهم فلو محص ما في قلوبهم وعرف منشأ الأعمال من نفوسهم لوجد أن ما يقومون به من أعمال صالحة هي رياء وخداع لأن أسباب النفاق التي ذكرناها سابقاً متوفرة في صدورهم فلذا حصر الله إيمانهم به على مجرد اللفظ باللسان .

( الثامنة ) هذه الآيات وما بعدها مع كونها نعمة من الله على المؤمنين باخبارهم عن أحوال المنافقين فإن فيها أيضا تهديداً للمؤمنين من سلوك مسالكهم وأن يغزو قلوبهم من الأنانيات وأغراض النفوس ما يغمسهم فيما انغمس به المنافقون فيهبطون من أرفع المستويات إلى أحطها ـ والعياذ بالله ـ ولذا كان السلف الصالح من أشد الناس خوفاً من النفاق .

( التاسعة ) في هذه الآيات الكريمة حض للمؤمنين على الصدق مع الله وتصفية سرائرهم لله وحصر إسلام وجوههم لله وعدم التعلق فيما سوى الله حتى لا يدب إلى قلوبهم شيء من الأمراض التي تجعل فيها ظلمات متراكمة كما أسلفنا

ذكرها فان المؤمن إذا سمع ترتب العذاب الأليم على الكذب ابتعد عنه وعن جميع موجباته والتزم الصدق مع الله الذي لاتخفى عليه خافية فتزداد مراقبته لله ويقوى إيمانه .

وقوله تعالى في أوصاف المنافقين : ﴿ وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون ، ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون﴾ أصح ما قيل إنه معطوف على قوله ﴿ ومن الناس من يقول﴾ لبيان حالهم في ادعاء الإيمان وهم كاذبون أولاً ثم بيان حالهم في تماديهم بالباطل واستمرائهم له ورؤيتهم الفساد إصلاحاً والصلاح فساداً لمروج عقولهم وفساد تصورهم لاعتمادهم على أقوال رؤسائهم من شياطين الإنس وازدرائهم لوحي الله الحكيم .

وهكذا شأن كل مفسد يدعي أنه مصلح في نفس إفساده سواء كان إفساده عن علم وشعور لضراوة عداوته للاسلام وأهله أو كان إفساده عن تقليد لرؤسائه الروحانيين أو السياسيين فهو يدعي الإصلاح في كلتا الحالتين تغريراً للمنخدعين بدعايته والمنجذبين لخطته وتبرئة لنفسه من وصمة الافساد بالتمويه والتلبيس والمغالطة .

وقد تقدم أن كل مغرض يسعى لهدم الإسلام وتفتيت عقيدته وتحطيم أهله أنه دائماً يتدرع بدعوى الإصلاح والعمل على رفع الظلم وإزالة البؤس ونشر الحرية يقصد بها الحرية البهيمية ليصطاد في الماء العكر وليلبس للناس جلود الضأن من اللين ويفتنهم فيما يبثه عليهم من زخرف القول غروراً

والمنافقون الأوائل يرون أفسد الفساد الذي هو الصد عن دين الله إصلاحاً زاعمين أن هذا الدين مخالف لتراث الأجداد وأنه مفرق للصفوف ومقيد للنفوس وقاض على حاجاتهم الأصيلة فيها ( الخ ) .

كما يرون الفساد الثاني الذي هو ممالأة الكفار وموالاتهم من دون المؤمنين إصلاحا لأحوالهم وتقوية لروحهم ووحدة وطنية لا يجوز لزاعمي الدين أن يتدخلوا فيها ـ ولكل قوم وارث فمنافقو هذا الزمان يرون أفسد الفساد وأكفر الكفر الذي هو الطعن في الدين والمناداة والعمل على أقصائه عن الحكم واستبعاده عن جميع شؤون الحياة وحصره في المسجد فقط يرون هذا صلاحاً وإصلاحاً للمجتمع زاعمين من جهة أنه طائفية ومدعاة للشقاق ومن جهة أخرى أنه لا يصلح للعصر ولا يساير التطور وهذا أعظم طعن بجناب الله العظيم وإلحاد في أسمائه وتفضيل لخططهم وآرائهم على حكم الله ومراده .

ففي قولهم هذا إنكار لعلمه الواسع المحيط بكل شيء وتنديد بحكمته ورحمته فلم يجعلوا الله عليماً بما يصلح أحوال الناس في كل عصر ولا حكيماً يشرع لهم ما يصلح أحوالهم في كل قطر وزمان بل تمادى ورثة المنافقين في هذا الزمان فزعموا أن أحكام الله في شرعه قاسية لا تناسب الإنسانية وهذا يقتضي أن الله ليس رحماناً ولا رحيماً لأن شريعته مبنية على القسوة والخمول لا على الحكمة والرحمة فقد ارتكسوا في أبشع دركات النفاق غاية الإرتكاس وهم يدرؤون الشنعة عن أنفسهم

بدعوى الإصلاح فيسمون الخلاعة ومفاسد الأخلاق وإباحة الخمور وبثها مدنية ، واختلاط الجنسين والتبرج والتهتك والتعري في البلاجات الخليعة وبث دور المراقص والمسارح رقياً ومسايرة للركب ، وإباحة الزنا حال الرضا بتشريع الأنظمة المعفية لأهله من إقامة حدود الله وبث سائر أنواع الفحشاء والمنكر حضارة وتطوراً فيرون أنهم مصلحون بجلب كل مفسدة واستحسان كل مفسدة وتأييد وحماية كل مفسدة تمسكاً بما يراه رؤساؤهم أو تقليداً لأساتذتهم والمضبوعين بهم من الكفر فاقدي العقيدة الصحيحة والأخلاق الفاضلة ، وهم في الحقيقة مفسدون ولهذا ابتدأ الله الكلام المؤكد لإثبات إفسادهم بكلمة ( ألا ) التي هي أداة للتنبيه والإيقاظ وتوحيد الأنظار واهتمام المتكلم بما يحكيه بعدها فقال تعالى : ﴿ألا إنهم هم المفسدون﴾ .

ثم أخبرنا عنهم أنهم لا يشعرون لمروج عقولهم وفساد طبائعهم بما حل فيها من الشبهات الناشئة من ظلمات المرض المتراكمة التي سبق ذكرها ،وهم على نوعين نوع تجاري به مرض قلبه وشدة عداوته للإسلام والمسلمين فنصب نفسه طاغوتاً لتركيز جميع الشرور والإفساد والمؤامرات وهم اليهودومن انطبع بطبائعهم من المشركين القدامى والمشركين الجدد الذين شركهم شرك تعطيل فظيع وهم الذين قرنهم الله مع اليهود في عداوتنا إذ قال : ﴿لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا﴾ كما أثبتت الوقائع ذلك .

ونوع آخر مسوق إلى الافساد بسوء التقليد الأعمى الذي لا ميزان فيه لمعرفة الصحيح من الباطل والصلاح من الفساد وليعلم أن عدم شعورهم ليس ناشئاً من تفضيلهم وسلامة صدورهم ولكنه ناشيء من فساد تصورهم لخبث عقيدتهم وما حل في قلوبهم من الأمراض المعنوية التي أظلمتها حتى حجبتها عن كل نور ولهذا كان من أعظم أنواع إفسادهم التشكيك في الدين وتفريق كلمة المؤمنين .

ثم إن أخبار الله لنا عن سوء فعالهم وخبث سرائرهم بصيغة السؤال والجواب التي هي من أقوى الأساليب لفهم الكلام تنبيهاً للأذهان وتوجيهاً لها إلى الإحاطة بالمعاني ليتعمق المسلم المؤمن في معرفة صفات المنافقين التي هي من لوازم النفاق إلى يوم القيامة فيقيس الحاضر من أهل زمانه على الماضين من المنافقين ويقارن بين أوصافهم ولا يغترّ بالأقوال والمظاهر ــ وهنا فرق لطيف بين الشرطين ( إذا ) و( إن ) وهو أن يكون السؤال بـ ( إذا ) عما كان سببه قوياً من شأنه أن لا يسكت عنه ويكون بـ ( إن ) إذا كان سببه ضعيفاً .

**( فائدة )** في قوله تعالى : ﴿ ألا إنهم هم المفسدون﴾ أتى الله بضمير الفصل بعد الإشارة ليفيد حصر أحوالهم في الفساد فمهما زعموا خلافه فهم مفسدون في كل شيء ولا يصدر عنهم إلا فساداً لخبث ضمائرهم وفساد سرائرهم .

وقوله سبحانه عن المنافقين ﴿وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ألا إنهم هم السفهاء

ولكن لا يعلمون﴾ انتقل الله من تصوير حالهم وقبيح الأعمال إلى تصوير حالهم في جوهر الإيمان وأنه إذا طلب منهم الإيمان الصحيح كإيمان الناس من الماضين الذين يعظمونهم ويقدسونهم كإبراهيم وموسى وغيرهما أو من الحاضرين الذين يزدرونهم كمحمد ﷺ وأصحابه أجابوا جواب العناد والتكبر والغطرسة قائلين ﴿أنؤمن كما آمن السفهاء﴾ .

والسفه في اللغة خفة العقل وضعف الرأي ولازمه سوء التصرف في الأمور الدنيوية وامتهان النفس ونسيانها وإرخاصها بلا ثمن في الأمور الأخروية بل حرمانها من ثمنها الصحيح الذي هو العز والسؤدد في الدنيا والنعيم المقيم الخالد في جنان الآخرة وشراء النار والخزى بدل ذلك وجعلها ثمناً لها ، فأي سفه أشنع من ذلك وأقبح ؟ ولذا قال سبحانه : ﴿ألا إنهم هم السفهاء﴾ مبتدءاً في جوابه بـ ( ألا ) التي يراد بها التنبيه والإيقاظ والتي فيها الدلالة على اهتمام المتكلم كما أنه سبحانه أتى بضمير الفصل أيضاً بقوله ﴿إنهم هم السفهاء﴾ ليحصر جميع أحوالهم في السفاهة الشنيعة التي فيها بيع نفوسهم على أعدى أعدائهم الذي هو الشيطان والذي لا يجدون عنده ثمناً لها إلا زجهم معه في النار ( ولكن لا يعلمون ) .

إن خطتهم سفه محض وإن السفه مقصور عليهم فإنهم ليس عندهم شعور بأن خطتهم ركوب للهوى واتباع للشيطان ومخالفة تماماً لحقيقة الإنسانية فإن الإنسانية الحقيقية هي الماشية على الإيمان الذي يجعلها ساعية في الخير مكافحة للشر

مجاهدة لأعداء الله وأعدائها من شياطين الإنس والجن ولهذا سماهم الله ( الناس ) بقوله ﴿ كما آمن الناس ﴾ لأن غير المؤمنين لا يستحقون اسم الإنسانية الحقيقية وإنما إنسانيتهم صوريَة في الشكل بهيمية في الحقيقة كما قال تعالى : ﴿ إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً ﴾ وقال : ﴿ إن شر الدواب عند الله الذين كفروا ﴾ ولو لم يكن من سفههم إلا أنهم يعرفون حال الأنبياء السابقين ويقدسونهم لكفى دليلاً على شناعة سفههم .

وأما رميهم للمؤمنين بالسفاهة فلا عجب فيه لأن هذا من سنة الكفار قديماً وحديثاً فقوم نوح عليه السلام قالوا له ﴿ وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادىء الرأي ﴾ أي أتبعوك عن سفاهة دون إعمال لرأيهم وهم ليسوا من علية القوم بل قالوا ﴿ أنؤمن لك واتبعك الأرذلون ﴾ وفي عصر النبوة يقول المنافقون أكفر الكفرة في وصفهم للمؤمنين بأنهم السفهاء وفي عصرنا هذا نجد منافقيه يسمون المؤمنين بالرجعيين والمتخلفين والمتزمتين وغير ذلك ويسبغون على أنفسهم ألقاب المدح من المدنيَّة والتقدمية والرقي كما هي عادة كل منافق وضال مفسد يسمي إفساده وضلاله بأسماء حسنة ليموه بها على أطفال العقول من صغير وكبير والله المستعان .

وقوله تعالى : ﴿ وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزؤن ﴾ .

هذه الآية الكريمة أزالت ما يلاحظه بعض الناس من

شبهة الأشكال في الآية التي قبلها من قوله تعالى عنهم ﴿ أنؤمن كما آمن السفهاء﴾ فإن بعض الناس قد يقول إنهم رفضوا الإيمان علانية بقولهم هذا فيكف يعد قولهم نفاقاً ؟ فنقول إن هذا التساؤل فيما بينهم يقول بعض المغفلين منهم للفريق الآخر أو يقوله منهم من يتعمق في النفاق ثم هم يركسونه في جوابهم له ويعمقونه ، أو يقوله منهم من غلبت عليه سلامة صدره وأعجب بالإسلام والمسلمين فيأتيه الجواب منهم مفسداً لصدره قالباً لفكرته فالحاصل أن التساؤل في الآية السابقة ليس وارداً عليهم من خارج محيط النفاق وإنما هو فيما بينهم .

ويشهد لذلك هذه الآية التي أوردها الله بعدها بقوله : ﴿ وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا﴾ فإنها تشهد عليهم بالنفاق الواضح الشنيع وأن هذا دأبهم في مخادعتهم المؤمنين ومكرهم بهم يدفعونهم عن أنفسهم كلما استقبلوهم بدعوى الإيمان ، وقد عبر الله عنهم بصيغة الماضي ليكون أصرح بتوبيخهم على ما بلغوه من التهتك في النفاق حتى صاروا ذوي وجهين يتكلمون بلسانين وهذه حالة المنافقين في كل وقت يعدمون السلطة فيه وتكون القوة والسلطة فيه لغيرهم بل إن منافقي هذا الزمان يستمرون على هذه الحالة ولو لم يعتريهم الخوف الذي اعترى أولئك إيغالاً منهم في المخادعة حتى يفترسوا الحكم فيكشروا عن أنيابهم بكل قبيح ، وكلمة ( إذا ) تفيد المستقبل ولو أتت بصيغة الماضي كما تشهد الوقائع في كل زمان إلى يومنا وإلى يوم القيامة .

أما قولهم (آمنا) بلفظ مجمل غير مفصل بشيء ففيه تورية منهم وإيهام للسامع إذ يحتمل أن يقصدوا به الإيمان بموسى إن كانوا يهوداً أو بأصنامهم إن كانوا من مشركي الخزرج دون ما سوى ذلك من الإيمان الصحيح المطلوب وذلك من خبثهم ومهارتهم بالغش والبهت والتدليس ويحتمل أن يقصدوا به الإيمان المفيد ذكره في أول الآيات مكراً منهم وخداعاً لصيانة أنفسهم وأهليهم وأموالهم من جريان أحكام الكفار عليهم .

واللقاء هو مصدر من أحد عشر مصدراً مذكورة في كتب النحو واللغة فهم إذا لقوا المسلمين المؤمنين زعموا أنهم آمنوا كما ذكرناه ﴿وإذا خلو إلى شياطينهم﴾ أي رؤسائهم في الكفر والضلال سماهم الله شياطين لسلوكهم مسلك الشيطنة من الإبتعاد عن أمر الله وإضلالهم لعباد الله ، فالمنافقون المخادعون للمسلمين بزعمهم الإيمان ﴿إذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم﴾ على حالتنا لم ننتقل عنها بل نحن على عقيدتكم .

ثم إنهم لم يكتفوا بهذا الاخبار المطمئن للشياطين بأنهم معهم في العقيدة والنصرة على رسول الله ﷺ وأصحابه واطلاعهم على أسرارهم والتربص بهم الدوائر وتنفيذ ما يريدونه من صنوف الإيذاء السرية والمكر الخفي بل بينوا سبب زعمهم الايمان إذا التقوا بالمؤمنين بأنهم يلعبون على أذقانهم ويسخرون بهم ويمكرون حيث قال : ﴿إنما نحن مستهزؤون﴾ ساخرون باتباع محمد متهكمون عليهم مستخفون بهم لنسلم على أنفسنا

وننال حقوقنا معهم فنحن نلعب بهم ونتربص بهم الدوائر .
وحيث إن شأن المؤمنين الصادقين المخلصين عظيم عند الله ومنزلتهم لديه عالية تولى سبحانه وتعالى مقابلتهم على استهزائهم بالمؤمنين ليكشف أحوالهم ويفضح مخازيهم وتذبذبهم ويتولى الانتقام منهم في الدنيا والآخرة فقال سبحانه ﴿الله يستهزىء بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون﴾ .

واستهزاء الله بهم ليس كاستهزاء المخلوق فإنه يتعالى عن مشابهة خلقه ولكنه ينزل بالمنافقين من أنواع الفضيحة والتحقير وصنوف العذاب والسخرية بهم في الدنيا والآخرة ما يجعلهم أضحوكة وهزواً لكل مطلع عليهم فهو يقابلهم في الدنيا بإجراء الأحكام الظاهرة التي قصدوا النفاق لأجلها ولكنه يفضحهم باخبار رسوله عليه السلام في وحيه المبارك بما يكشف سرائرهم كما جرى في عدة سور من القرآن ويفضحهم أيضاً بمواقفهم السلبية حالة الشدة والانهزامية حالة الحرب وشدة الهول وتقاعسهم عن الإنفاق وتكاسلهم عن الصلاة وجبنهم عن الجهاد وتماديهم في الكذب والخيانة والاخلاف ، وانحيازهم إلى الكفر موالاة وممالأة إلى غير ذلك من سمات المنافقين التي يتضح بها أمرهم لكل مسلم مؤمن متيقظ .

وينزل عليهم من أنواع العقوبات القدرية حيث سلمهم بمكرهم من العقوبات الشرعية . ويجعلهم في الآخرة أضحوكة بما يضرب لهم من السور الذي له باب كما أخبرنا عنه في الآية ١٤ من سورة الحديد . وكما يفتحلهم باب إلى الجنة

ويقال لهم ( هلموا ) فيقبلون يسبحون في النار والمؤمنون على الأرائك ينظرون إليهم ويضحكون ، وكما ورد ، النار تجمد كما تجمد الاهالة فيمشون عليها يظنونها منجاة فنخسف بها .

ومن مكر الله واستهزائه بالعصاة والكافرين والمنافقين استدراجهم بادرار النصر ودفع النقم الدنيوية مدداً من الزمن ليزدادوا بها إثماً ثم يضاعف لهم العقوبات الشرعية أو العقوبات القدرية في الدنيا مع ما ينالونه في الآخرة أو يدخرها مضاعفة في الآخرة حسب ما تقتضيه ، حكمته كما قال تعالى : ﴿ ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم خيراً لأنفسهم إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً ولهم عذاب مهين﴾ وكما قال : ﴿ فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين﴾ .

فهذا على تأمل البشر كأنه استهزاء ومكر وخداع وذلك لما بين الفعل وجزائه من مشابهة ومشاكلة في القدر وملابسة قوية بين ضخامة الجزاء وشناعة الفعل .

وقال قوم إن في ذكر استهزاء ، الله بهم استعارة كقوله ﴿ وجزاء سيئة سيئة مثلها﴾ والجزاء لا يكون سيئة ، وكقوله : ﴿ فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم﴾ والقصاص لا يكون اعتداء ، وقوله تعالى : ﴿ ويمدهم في طغيانهم يعمهون﴾ يعني يزيدهم في الشر إما بزيادة فعله أو إمهالهم بالإمداد في أعمارهم ليزدادوا منه طغياناً يظلون به في حيرة

من أمرهم فان الطغيان هو مجاوزة الحد كما أسلفنا توضيحه ، والشر يجر بعضه بعضاً حتى يطغى صاحبه فيكون بعيداً من الهداية ، وهذا كما قال الله تعالى في الآية ٧٦ من سورة مريم : ﴿قل من كان في الضلالة فليمدد له الرحمن مداً﴾ وهذا من بعض عقوبات الله القدرية ، كما سيأتي له مزيد إيضاح ، وقد جاء تقرير عقوبة الاستهزاء بلفظ المضارع المستلزم الدوام والتكرر إلى ما شاء الله .

وقوله تعالى :

﴿أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين﴾ يعني هؤلآء المنافقين الذين ذكر الله أوصافهم من زعمهم الإيمان وهم الكافرون وزعمهم الإصلاح وهم المفسدون ورميهم المؤمنين بالسفاهة قديماً وبالرجعية أخيراً وهم السفهاء والرجعيون الذين رجعوا إلى كل ضلال قديم ، وزعمهم الاستهزاء بالمؤمنين لانتقاصهم لمن آمنوا به حتى جعلهم الله هم المستهزأ بهم ، إنما فعلوا ذلك لأنهم اشتروا الضلالة بالهدى يعني استبدلوا واختاروا الكفر على الإيمان ، وجاء التعبير بالشراء لأن فيه حقيقة الاستبدال فهذا هو الذي جرأهم على خططهم الشنيعة المخالفة للفطرة والمجانبة للدين لكونهم اشتروا الكفر بالإيمان حتى خسرت صفقتهم وفقدوا الاهتداء لصراط الله المستقيم فأفلسوا من الربح وفقدوا الهداية من الضلالة فلم يهتدوا إلى العلم بالله ولا إلى المتاجرة معه ، كما تاجر المؤمنون لأن اختيار الضلالة يفقدهم رأي المال فكيف يربحون ؟

وفي قوله تعالى : ﴿ وما كانوا مهتدين﴾ معنى آخر وهو أن التاجر قد لا يربح وهو سائر في تجارته على هدى وبصيرة ولكن أخفق من الربح لعوارض أخرى فلا يستحق الذم على عدم ربحه في تلك الحال أما هؤلآء فخطتهم على عماية ولذلك نفى الله عنهم الأمرين الربح والهداية وذلك لأنهم عطلوا عقولهم التي يتمكنون بها من النظر الصحيح المؤدي إلى نتيجة نفيسة وهي معرفة الصواب من الخطأ واستبدلوا بها اتباع الهوى واقتفاء آثار الآباء وتقليد الأكابر الذين سماهم الله بالشياطين فأصبحوا تاركين مدارك العلم الثلاثة الحس والنظر والسمع وسالكين مسالك القردة في التقليد فاختاروا الضلالة والشك والجهل على الهداية واليقين والعلم فما كانوا رابحين في تجارتهم التي اختاروها ولا كانوا مهتدين في دينهم لأنهم لم يطلبوه من منهله الصحيح الذي هو الوحي ولم يرغبوا في فهمه .

وهكذا كل من تجسمت فيهم الأحداث والبدع وتحكمت فيهم العادات وغلب عليهم تقديس الرؤساء الروحانيين أو السياسيين وتقليدهم فانهم يعطلون مواهبهم العقلية وأحاسيسهم الفطرية . فيقلدون شياطينهم الأكابر بضروب من التأويل والتحريف يسلكون به مسلك اليهود والمنافقين ، الذين صور الله لنا خططهم الفاسدة وتجارتهم الكاسدة في هذه الآيات الكريمة . ولكل قوم وارث ، ومما تقدم يرى المسلم المؤمن عناية الله بالمؤمنين ورحمته الكاملة بهم حيث تولى المعركة التي بينهم وبين المنافقين وجعلهم كالمخادعين له لمخادعتهم المؤمنين وقضى

عليهم بالفساد عكس ما يزعمونه من الإصلاح وقضى عليهم بالسفاهة والامتهان وكشف أحوالهم وهتك استارهم للمؤمنين وقضى بالانتقام منهم على استهزائهم بهم بأن يستهزىء هو بهم في الدنيا والآخرة .

وما أشقى وأتعس من يكون الله خصمه ، إنه لا يشم رائحة السعادة في أي شأن من شؤون حياته السياسية أو الاجتماعية لأن الله يجعل أمره مريجاً فاسداً ويجعله يتخبط في شتى الظلمات التي سيصورها لنا بعد قليل بأبدع تمثيل ، إنه يحبط مساعي المنافقين ويشل حركاتهم عن عباده المؤمنين .

إن تلك الآيات السابقة تصور لنا مشهدين عظيمين مشهداً للمنافقين يفضح مخازيهم ويتوعدهم وعيداً مفزعاً رهيباً ليس لهم عنه مناص ولا خلاص ومشهداً آخر للمؤمنين يدافع الله به عنهم شر كيد المنافقين لأن المؤمنين أولياء الله فهو يطمئنهم على مستقبلهم بأن لهم حسن العاقبة ولعدوهم سوء العاقبة وسوء الدار فالكافرون وأذنابهم المنافقون لهم المصير الرهيب في الدارين فيحصل للمؤمنين قوة معنوية ومدد روحي يجعلهم لا يكترثون أبداً بأعدائهم من هؤلآء ولا هؤلآء فما عليهم إلا أن يواصلوا سيرهم إلى الله بكل صدق وإخلاص مستقبلين ما أمامهم من العقبات برباطة جأش وقوة جنان ، واثقين بوعد الله الذي لا يتخلف ﴿ ولن يخلف الله وعده ﴾ ومصممين على القيام بنصرة دينه وقمع المفتري عليه دون مبالاة بكثرة عدوهم أو قوة عدته .

فهذه الآيات تزيد المؤمنين إيماناً ويقيناً إلى يقينهم فيكونون دائماً على صلة وثيقة بربهم هي صلة المحبة الصادقة الخالصة وصلة التعظيم الكامل تِلْكما الصلتان اللتان تجعلان المؤمنين يسارعون في مرضاة الله ويصدقون البيعة معه على النفس والمال فيظفروا بنصره المؤزر .

ثم إن في هذه الآيات الكاشفة الفاضحة للمنافقين تحذيراً لعباد الله المؤمنين من سلوك مسالكهم في أي شيء من شتى شؤون حياتهم وأن لا يظهروا خلاف ما يبطنون أو يقولون ما لا يفعلون وأن لا يتخذوا أحداً غير الله ولياً ولا نصيراً وأن لا يصغوا إلى ما تبثه شياطين الإنس من زخارف القول والوعود المعسولة البراقة الخلابة التي تشرد بهم عن صراط الله وتخرجهم من ولاية الله ونصره ودفاعه ومدده إلى ولاية الشيطان وغروره وأمانيه الكاذبة .

# أمثال المنافقين في القرآن

ثم ضرب الله للمنافقين مثلين في غاية الروعة ، وأبدع التصوير الملائم لأحوالهم فقال : ﴿ مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون ، صم بكم عمى فهم لا يرجعون﴾ .

شبه الله حال المنافقين بقوم كالمسافرين ضلوا عن الطريق فأوقدوا ناراً عسى أن يستضيئوا بها ويعرفوا الطريق فلما أضاءت لهم وكادوا أن يعرفوا معالمه انطفأت عنهم أنوارها فعادوا إلى ظلمة أشد وحيرة أفظع مما قبل بحيث انسدت عنهم أبواب الهدى الثلاثة التي هي الأذن والعين والقلب فلم ينتفعوا بأسماعهم ولا أبصارهم ولا قلوبهم فلهذا نزلوا منزلة الصم البكم العمي فهم ( لا يرجعون ) لزيادة ظلماتهم بعد انطفاء النور .

وفي قوله تعالى : ﴿ ذهب الله بنورهم ﴾ - ولم يقل ( ذهب نورهم ) سرعجيب وهو انقطاع تلك المعية الخاصة التي للمؤمنين من الله تعالى لأنه سبحانه مع المؤمنين ومع الصابرين و« مع الذين اتقوا والذين هم محسنون » فذهاب الله بنور المنافقين هو انقطاع معيته التي خص بها أولياءه وقطعها عن

المنافقين فانهم بعد ذهاب نورهم ليس لهم نصيب من الله أبداً .

ويلاحظ عدة حكم في ضرب المثل لهم بالنار .

أحدها : إن المستضيء بالنار هو مستضيء من جهة غيره لا من جهة نفسه فإذا ذهبت تلك النار بقي في ظلمة فكأنهم لما أقروا بألسنتهم من غير اعتقاد قلوبهم كان نورهم كالمستعار.

وثانيها : إن ضياء النار يحتاج في دوامه إلى مادة الوقود من حطب أو غيره فكذلك نور الإيمان يحتاج إلى مادة الاعتقاد الصحيح بالصدق والإخلاص والأعمال الصالحة الصادرة عنهما ، ولما كان ذلك مفقوداً عن المنافقين لم يدم لهم نور فعادت ظلمتهم .

وثالثها : إن الظلمة الحادثة بعد النور أشدّ على الإنسان من ظلمة لم يجدها قبله فلهذا شبه حالهم بذلك .

ورابعها : قوله ﴿ ذهب الله بنورهم﴾ ولم يقل ـ بنارهم لأن النار فيها إشراق وإحراق فذهب باشراقها وهو النور وأبقى عليهم ما فيها من الإحراق والدخان .

وخامسها : قوله تعالى ﴿ذهب الله بنورهم﴾ ولم يقل « بضوئهم » لأنه لو قال « بضوئهم » لأوهم الذهاب بالزيادة فقط دون الأصل ، فلما كان النور أصل الضوء كان ذهابه ذهاباً بالشيء وزيادة .

سادسها : توحيد الله النور في قوله ( بنورهم ) وجمعه للظلمات في قوله « وتركهم في ظلمات » وذلك لأن الحق

واحد وهو صراط الله المستقيم . وما عداه فهو سبل كثيرة كلها ظلمات يحتار صاحبها فطرق الباطل متعددة ولهذا قال تعالى : ﴿ الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور ، والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات﴾ .

سابعها : مناسبة هذا المثل للمنافقين بايقاد النار لما يوقدونه من نار الفتنة التي يوقعونها بين المسلمين فيكون بمنزلة قوله تعالى : ﴿ كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله﴾ ويكون قوله تعالى : ﴿ ذهب الله بنورهم﴾ مطابقاً لقوله : ﴿ أطفأها الله﴾ وهذا قول ضعيف يبطله مدلول السياق ولكنه حق في التقدير .

ثامنها : هذا المثل مناسب لانتقالهم من نور المعرفة والبصيرة إلى ظلمة الشك والكفر فإن المنافق بعدما أبصر عمى .

تاسعها : مطابقة هذا المثل لما تقدمه من الآية السابقة ﴿ أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى ..﴾ كيف حصلت المطابقة بين التجارة الخاسرة باختيار الضلالة على الهدى وطرح الهداية في مقابلتها وبين حصول الظلمات التي هي الضلالة بدلاً من النور الذي هو الهدى فيا له من تمثيل بديع .

وعاشرها : إن في هذا المثل تنبيهاً على حالهم في الآخرة وأنهم يعطون نوراً ظاهراً ، كما كان نورهم ظاهراً في الدنيا ثم يطفأ ذلك أحوج ما يكونون إليه إذ لم يكن له مادة باقية من الإيمان فيبقون في الظلمة على الجسر لا يستطيعون العبور

وقد فقدوا نورهم كما ورد في الحديث الذي رواه الإمام مسلم في صحيحه عن جابر بن عبد الله وقد سئل عن الورود فقال : ( نجيء نحن يوم القيامة على تل فوق الناس فتدعى الأمم بأوثانها وما كانت تعبد ، الأول فالأول ثم يأتينا ربنا تبارك وتعالى فيقول من تنتظرون ؟ فيقولون ننتظر ربنا فيقول أنا ربكم فيقولون حتى ننظر إليك فيتجلى لهم يضحك قال فينطلق بهم فيتبعونه ويعطى كل إنسان منهم منافق أو مؤمن نوراً ثم يتبعونه ، وعلى جسر جهنم كلاليب وحسك تأخذ من شاء الله تعالى ثم يطفأ نور المنافقين ثم ينجو المؤمنون فتنجو أول زمرة وجوههم كالقمر ليلة البدر سبعون ألفاً لا يحاسبون ثم الذين يلونهم كأضوأ نجم في السماء ثم كذلك ثم تحل الشفاعة ويشفعون . إلخ .

فتأمل أيها المسلم المؤمن حال المنافقين إذا انطفأت أنوارهم فبقوا في الظلمة تختطفهم كلاليب جهنم ، وقد ذهب المؤمنون في نور إيمانهم يتبعون ربهم عز وجل كما هو منصوص الحديث .

قال ابن عباس وغيره من السلف مثل هؤلآء في نفاقهم كمثل رجل أوقد ناراً في ليلة مظلمة في مفازة فاستضاء ورأى ما حوله فاتقى ما يخاف ثم انطفأت ناره فبقي في ظلمته خائفاً متحيراً ، وقال مجاهد : ( اضاءة النار لهم إقبالهم إلى المسلمين والهدى ، وذهاب نورهم إقبالهم إلى المشركين والضلالة ) .

وقوله تعالى : ﴿ صم بكم عمى ﴾ الصم أشد من الطرش لأنه انسداد منافذ الأذن والبكم عيب في اللسان أو الفؤاد

يمنع من النطق أو الوعي فيجمع بين الفساد في محل الفهم ومحل النطق ، والعمى فقد البصر أو البصيرة وقوله تعالى : ﴿ فهم لا يرجعون﴾ أي لا يرجعون عن ضلالتهم أو لا يرجعون عن الصفات التي أصابتهم من الصمم والبكم والعمى لأنهم انصرفوا عن الهداية باختيارهم لغلبة أهوائهم عن تصفح الهدى بهذه الآلات الصالحة للتصفح والتي قلبها الله عليهم لما أعرضوا عن سماع الخير والنطق به فكانوا على هذه الحال .

إنهم ليسوا كالكفار الذين أعرضوا عن الهدى أول وهلة وصموا آذانهم عن السماع وعيونهم عن الرؤية وقلوبهم عن الإدراك قائلين في قلوبنا أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب لو كانوا كالكفار في موقفهم الجريء لهان أمرهم لإراحة المسلمين من شرهم بالصراحة ولكن هؤلآء المنافقين لم يكونوا كذلك بل أظهروا خلاف ما يبطنون بعدما عرفوا الحق فأنكروه ولذلك شبههم الله بالمستوقد ناراً وضرب لهم مثالين نارياً ومائياً وأخبر أنهم لا ينتفعون بجميع الآلات الإدراك ، إذا لم يحسنوا التصرف بها كما سنوضحه إن شاء الله .

إنهم أصغوا بآذانهم إلى غير وحي الله فانشغلت عنه مما أشغلوها به فلا يشفعون بأسماعهم أبداً وأنهم انشغلت ألسنتهم باللغو وبلهو الحديث المتنوع فلا يمكن أن تتحرك بشيء من وحي الله وهي منشغلة عنه بغيره وإن أبصارهم منصرفة إلى غير الله من محبوباتهم وشهواتهم فلا يمكن أن تنظر في آيات الله وهي على هذه الحالة ، وإن قلوبهم منحشية بحب غير

الله وتعظيم غير الله والتعلق لغير الله فليس فيها مجال لذكر الله وما نزل من الحق فضلاً عن حبه وتعظيمه وحب نبيه ﷺ وتعظيمه فلهذا صاروا صماً بكماً عمياً لا يرجعون أي لا يعودون إلى الهدى بعد أن باعوه ولا يتركون الضلالة بعد أن اشتروها فهذه الآية متممة للتمثيل البديع ومنبئة بأن ما أصابهم ليس مجرد انطفاء النور وبقائهم في ركام الظلمات بل اختلت مشاعرهم جميعاً حتى صاروا على هذه الحال فهذا مثل من لم يصبه نور الإيمان ، أما المثل الثاني الذي هو المائي بعد المثل الناري فهو في قوله تعالى : ﴿أو كصيب من السماء﴾ .

قال الله تعالى : ﴿ أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت ، والله محيط بالكافرين﴾ بعدما شبه الله نصيب المنافقين في المثل الأول الناري مما بعث الله به رسوله ﷺ من النور والحياة بنصيب المستوقد النار التي طفأت عنه أحوج ما كان إلى نورها فبقي في الظلمات حائراً تائهاً أعقب الله هذا المثل الناري بمثل مائي فيه تصوير الهول والرعب والفزع ، فقال تعالى : ﴿ أو كصيب من السماء﴾ والصيب هو المطر الذي يصوب أي ينزل من علو إلى سفل فشبه الهدى النازل من السماء بهذا المطر لأن القلوب تحيا بوحي الله حياة الأرض بالمطر ولكنه شبه نصيب المنافقين من هذا الوحي بنصيب من لم يحصل له حظ من الصيب إلا ظلمات ورعد وصواعق وبرق في ليل داج تراكمت سحبه وتواترت رعودها المزعجة وصواعقها النازلة

الهائلة المحرقة وبروقها الخاطفة المرعبة فكأنهم في وسطها يزاولون غمرات الموت لما يحصل لهم من الافزاع والترويع .

تشبيه من الله لأحوال المنافقين لما يحملونه من الكفر وما يجري عليهم من الظلمات المتراكمة وهول الرعد وأفزاع الصواعق والبرق مثل لما يخوفون به من العذاب في الدنيا والآخرة أو لما هم فيه من أشكال الشبهات ، وأما الظلمات فهي مثل لعمايتهم عن الحق وأما الرعد فهو مثل للزجر والوعيد ، وأما نور البرق فهو مثل للحجج الباهرة التي تكاد أن تبهرهم ، وأما الصواعق فهي مثل لما يدعون إليه في القرآن إلى الجهاد في العاجل والوعيد على التخلف عنه أو هي مثل للتكاليف الإسلامية التي لا يفعلونها إلا بخوف ورياء وكونهم « يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت » هو في مقابلة وضعهم أصابعهم في آذانهم لئلا يسمعوا القرآن .

ووجه التشبيه أن الجاهل المفرط في الجهل لا تنفذ بصيرته إلى الحقائق فيكتفي بالمظاهر مغتراً بها مفتوناً فيقتصر على الإحساس السطحي بما في الصيب من ظلمات ورعد وبرق وصواعق وما ينشأ عن ذلك من برد وتوقيف سفر وتعطيل عمل دون نفوذ بصيرته إلى المنافع الحاصلة من ذلك الصيب من حياة الأرض والمنفعة العامة وهكذا ضعيف البصيرة تجاوز نظره الشيء المكروه في الظاهر إلى ما وراءه من نيل كل محبوب وهذه هي حال أكثر الخلق ضعفاء البصيرة يرون ما في الجهاد من المشقة والتعرض للقتل وبطش الأعداء وإتخاذ الجراحات

وملامة العذال ومعاداة من تخشى عداوته فلا يقدمون عليه بل يكرهونه وينفرون منه لأنهم لم تنفذ بصيرتهم إلى فوائده العظيمة من العز والسؤدد وقمع الأعداء والظهور عليهم وفرض السلطان عليهم وكذلك كل تكليف شرعي يثقل عليهم لعدم نفوذ بصيرتهم لفوائده .

وكذلك حال المنافقين مع القرآن يثقل عليهم وينفرون منه لما فيه من الوعد والوعيد والأوامر والنواهي والزواجر والتكاليف الشاقة على نفوسهم فلذلك حسن عليهم هذا المثل المائي بعد المثل الناري ، وقال الزمخشري لقائل أن يقول (شبه دين الإسلام بالصيب لأن القلوب تحيا به حياة الأرض بالمطر وما يتعلق به من تشبيه الكفر بالظلمة وما فيه من الوعد والوعيد بالرعد والبرق وما يصيب الكفرة من الإفزاع من البلايا والفتن من جهة أهل الإسلام بالصواعق . والمعنى أو كمثل ذوي صيب والمراد كمثل قوم أخذتهم السماء على هذه الصفة فلقوا منها ما لقوا) إلى أن قال ، فان قلت أي المثلين أبلغ قلت : ـ الثاني لأنه أدل على فرط الحيرة وشدة الأمر وفظاعته . وكذلك أفرادهم يتدرجون في مثل هذا من الأهون إلى الأغلظ .

وبالجملة فان المؤمنين أدركوا ما في وحي الله من حياة القلوب وإرتفاع النفوس والرؤوس مثل ما في المطر من الحياة الحسية فعلموا نفاسة ما يحصل لهم من الحياة الروحية والمعنوية فلم يمنعهم ما في وحي الله من رعد الوعيد وبرق التهديد وصواعق العقوبات والمثلات التي حذر الله بها من خالف أمره

وكذب رسوله ولا ما فيه من الأوامر والنواهي الشاقة على النفوس المخالفة للأهواء التي هي كالظلمات بل علموا بحسن النتيجة فلم يستوحشوا بل استأنسوا بصدق الامتثال لله فنالوا منه الحياتين الطيبتين في الدارين .

# المنَــافِقون

وأما المنافقون فقد عميت قلوبهم ولم تجاوز أبصارهم الظلمة ولم يروا إلا ما أخبرنا الله عن رؤيتهم له بقوله : ﴿ يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه ، وإذا أظلم عليهم قاموا ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم ، إن الله على كل شيء قدير﴾ فهم خائنون على أنفسهم مستوحشين من الرعد العظيم واضعين أصابعهم في آذانهم لئلا يسمعوا الصوت ، وليس بنافعهم ذلك وقد هالهم مشاهدة البرق الذي يكاد يخطف أبصارهم يختلسها ويستلها بسرعة من قوة ضوئه المفاجيء لأن أبصارهم أضعف من أن تثبت أمامه ، فكلما أضاء لهم الطريق في الظلمة مشوا في مطرح نوره خطوات قليلة وإذا أظلم يعني خفى البرق عليهم واستتر وقفوا في أماكنهم حائرين ينتظرون فرصة إضاءته مرة أخرى وهكذا لا ملجأ لهم من الهلاك ، ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم فهو قدير على ما هو أعظم من ذلك . ولكن لم يشأ ذلك لحكم ومصالح هو بها عليم حكيم .

فالوحشة لازمة للمنافقين والرعب والفزع لا يفارقهم لأن قلوبهم في وحشة من وحي الله أولاً ومن عباد الله القائمين

به ثانياً ، فهذه الأمثال التي ضربها الله في القرآن تصور لنا الأعاجيب من أحوال المنافقين المحوطة بالظلمات المعنوية المتراكمة الممثلة في مستوقد النار والمشوبة بالرعب والأهوال واضطراب الأحوال المتمثلة في الصيب الذي حظ صاحبه منه وحشة الظلمات وهول الرعد والقلق من البرق والإنزعاج من الصواعق والفزع والروع والتمادي في الحيرة التي لا يستطيع صاحبها السلوك . فما أروعه من تصوير لحالة المنافقين في تذبذبهم الذي يعيشون فيه بين لقائهم للمؤمنين ومخادعتهم لهم واستهزائهم بهم وبين عودتهم لشياطين من رؤساء الفتنة والضلال مؤكدين لهم أنهم معهم على الكفر ومتأرجحين بين طلب الهدى والنور وما يرجعون إليه من هدى وضلال .

فهذه أربع عشرة آيه من أوائل سورة البقرة في المنافقين وأكثر منها وأكثر في سور آل عمران ، والنساء ، والمائدة ، والأنفال ، والتوبة ، والنور ، والأحزاب وغيرها ، فقد أكثر الله العظيم من فضيحتهم وكشف أحوالهم وهتك أستارهم وبيان صفاتهم المطردة إلى يوم القيمة لأنهم شر من الكفار الصرحاء وأعظم خطراً في كل زمان ومكان .

خذ مثلاً في زماننا الشيوعية كفرها صريح مفضوح وأهلها صرحاء بإنكار الإله فكل مسلم يستوحش منهم ، ولكن هنا أصحاب المبادىء المادية ونحوها ممن يشتم الشيوعية ويتبجحون بالاعتراف بالله أو الإيمان بالله وهم لا يرجون لله وقاراً ولا يتقيدون بأوامره ، ولا يحرمون ما حرمه من

الخمور والزنا حالة الرضا ، ولا يحكمون بشريعته ، ولا يقيمون شيئاً من حدوده ، فما قيمة هذا الإله عندهم ؟

إن من أعمل النظر في وحي الله عرف حكمته في الإكثار من كشف أوصاف المنافقين ، وقد روى البخاري ومسلم وأصحاب السنن والمسانيد عن أبي موسى الأشعري عن رسول الله ﷺ أنه قال : مثل ما بعثني الله عز وجل به من الهدى كمثل غيث أصاب أرضاً فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا منها وسقوا ورعوا وأصاب طائفة منها إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ ، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه الله بما بعثني به فعلم وعلم ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به » .

( فوائد ) الأولى : قوله « يكاد » وكاد من أفعال المقاربة يعني قارب ويقارب وهي كلمة إذا أثبتت انتفى الفعل وإذا نفيت ثبت الفعل ، وقد ألغز فيها بعض المتأخرين سؤالاً فقال :

انحوى هذا العصر ما هي كلمة      جرت في لساني جرهم وثمود
إذا نفيت والله يشهد أثبتت      وإن أثبتت قامت مقام جحود

ويشهد للاثبات عند النفي قوله تعالى : ﴿ لا يكادون يفقهون حديثاً ولا يكاد يبين﴾ و( لم يكد يراها ) ويشهد للنفي عند الإثبات قوله تعالى : ﴿يكاد البرق يخطف أبصارهم ، يكاد سنا برقه ، يكاد زيتها يضيىء﴾ .

الثانية : قوله تعالى : ﴿ والله محيط بالكافرين﴾ الإحاطة كمال العلم والإدراك وكمال القدرة على الإهلاك فالله محيط بهم من كل المعاني ، كقوله تعالى : ﴿ ولا يحسبن الذين كفروا سبقوا أنهم لا يعجزون﴾ .

الثالثة : اختلف العلماء في الرعد والبرق ، فقال ابن الجوزي في تفسيره ما نصه ( والثالث أنه نار تنقدح من اصطكاك أجرام السحاب لسيره وضرب بعضه لبعض قاله شيخنا ) وهذا بعد حكايته للقول الذي يؤيده الحديث ، وقال القرطبي : ( وقالت الفلاسفة الرعد صوت اصطكاك أجرام السحاب والبرق ما ينقدح من اصطكاكها وهذا مردود لا يصح به نقل ، والله أعلم ) .

( أما الصواعق فهي جمع صاعقة وهي صوت شديد من صوت الرعد تقع معه قطعة من نار أو حديد تحرق ما تصيبه والله أعلم ) .

## فوائد مهمة في مادتي الإيمان والنفاق

الفائدة الأولى : إن قبول الوعاء لما يوضع فيه مشروط بتخليته وتفريغه وتنقيته من ضده فمثلاً الإناء الذي فيه ملح لا يصلح لوضع السكر حتى يفرغ من الملح وينقى من رواسبه وحينئذ يصلح لوضع السكر ونحوه ، وكذلك الوعاء الذي فيه نفط أو وساخة لا يصلح لوضع لبن أو سمن حتى يفرغ من النفط والوساخة وينقى من رواسبهما وهذه قاعدة بديهية

لا جدال فيها ولا مناقشة . وكما أنها في الذوات والأعيان فهي أيضاً في الإرادات والإعتقادات بل في سائر الجوارح والأحاسيس لبني آدم وأعظمها القلب ، فهو أشرفها وأرهفها إحساساً ، فإذا كان القلب ممتلئاً بصنوف الباطل اعتقاداً ومحبة لم يبق فيه محل لاعتقاد الحق ومحبته أبداً إذ لا يجتمع ضدان في وعاء واحد .

فلا بد للمسلم المؤمن من تصفية قلبه وتخليصه من حب فلان وفلان وعلى الأخص ما يكرهه الله سبحانه أو يعاديه من الظلمة البغاة أو الفسقة العتاة أو الطواغيت الذين جعلوا لأنفسهم حق التشريع والتقنين رافضين وحي الله زاعمين قسوة أحكامه أو عدم صلاحيته للعصر وما أشبههم من أهل أي نحلة . فان انشغال القلب بمحبتهم يحرمه من حب الله ورسوله قطعاً إذ لا يجتمع في قلب واحد حبان متعارضان حب الله وحب أعدائه ، هذا من المحال ولذا قال الله تعالى : ﴿لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر . يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم﴾ .

وكذلك إذا انشغل القلب بالشبهات الباطلة من النظريات والطرائق والمبادىء التي تقذف بها الماسونية اليهودية قديماً وحديثاً على الناس فإنه لا يكون فيه محل لدخول الحق المحمدي أو قبوله بل يبقى والعياذ بالله غلفاً منحشياً بصنوف الباطل ، وكذلك إذا حل في القلب حب الشهوات البهيمية وأولع فيها

وانشغل بها فانه لا يكون فيه محل قابل لحب ما يريده الله منه اعتقاداً وعملاً بل لا يكون فيه قابلية لحب الله أصلاً ولا لحب ما يحبه الله من أي شخص أو عمل ، وكذلك إذا انشغل بحب الغانيات وحب لهو الحديث المتنوع من الأغاني الفاتنة والأقاصيص الماجنة فإنه لا يمكن أن يحل فيه حب وحي الله أو ذكره ، كما قال ابن القيم :

حب الكتاب وحب ألحان الغنا ... في قلب عبد ليس يجتمعان
والله ما سلم الذي هو دأبه ... أبداً من الإشراك بالرحمن
القلب بيت الرب جل جلاله ... حباً وإخلاصاً مع الإحسان
فإذا تعلق بالسماع أصاره ... عبداً لكل فلانة وفلان
ثقل الكتاب عليهم لما راوا ... تقييده بشرائع الإيمان
واللهو خف عليهم لما رأوا ... ما فيه من طرب ومن ألحان
قوت النفوس وإنما القرآن قو * ت القلب أنى يستوى القوتان
ولذا تراه حظ ذى النقصان ... كالجهال والصبيان والنسوان

ولا شك أن من تعلق قلبه بغير الله يصير فيه نوع أو أنواع من الشرك قد تخرجه عن الملة الإسلامية أن فضل ما أحبه أو ما يريده محبة أو ما يفعله محبة على مراد الله ومرضاة الله فالقلب خطير جلاً ولهذا قال ﷺ ( إلا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب ) فالحب لله وفي الله هو خالص التوحيد ، وأما الحب مع الله فهو شرك فان الشرك ليس مقصوراً على عبادة صنم ، وإنما هو يتمثل بانصراف القلب عن الله إلى غيره

من أي محبوب أو مرغوب ولهذا قال ﷺ تعس عبد الدرهم وتعس عبد الدينار .. الخ .

وكذلك اللسان إذا انشغل بالنطق الباطل من أنواع اللغو لم يتمكن صاحبه من النطق بالذكر والتلاوة والكلم الطيب حتى ينقله عن الباطل ويفرغه لذلك وكذلك الأذنان إذا اصغتا لاستماع لهو الحديث لم يبق فيهما محل ولا قابلية لاستماع ذكر الله وما نزل من الحق . وهكذا كل جارحة يشغلها صاحبها بما لا يرضى الله لا يكون فيها قابلية للسعي في مرضاته وقد قال ﷺ : (لأن يمتلىء جوف أحدكم قيحاً حتى يريه خير له من أن يمتلىء شعراً ) والمقصود الشعر الفاتن المفسد للقلب بالإغراء على الفاحشة فكيف بمن يمتلىء صدره بالشبهات والشكوك والخيالات والنظريات الفاسدة والتقديرات التي لا وجود لها وسائر أنواع الدجل التي تبثه وسائل النشر الحديثة والعلوم المبتدعة الفاسدة الضارة كنظريات ( فرويد ) وغيره من طواغيت اليهود كمسائل الجنس والحكايات المائعة ونحو ذلك من وحي شياطين الإنس أعداء الرسل وأممهم إلى يوم القيامة ؟

لا شك أنها من الشعر المنصوص عليه في هذا الحديث ومن المعلوم أن مهمة شياطين الجن والإنس غزو القلوب وإفسادها بكل وسيلة وإذا امتلأ القلب بهذه الأشياء لم يكن فيه محل ولا قابلية لأنوار القرآن وحقائق الوحي المنزل على محمد ﷺ ، وكذلك إذا بذلت النصيحة لرجل قلبه ممتلىء من صنوف وحي الشياطين المتقدمة لم يكن فيه استعداد لقبولها .

# فَوائِدمن تَمثِيل المنافِقِينَ في القرآن ١

من أراد الانتفاع بالقرآن فليجمع قلبه عند تلاوته إياه ، أو عند سماعه له وليلق بسمعه وليحضر حضور من يخاطبه مولاه الكبير المتعال فرحاً به أعظم فرحة معتزاً به ومفتخراً أيما افتخار ، يرى نفسه أسعد الناس بذلك ، وحينئذ يحيا قلبه وينتفع بما يتلوه منه أو يسمعه وليكن خاشعاً خاضعاً متدبراً باكياً أو متباكياً متحزناً وذلك أن كمال التأثير موقوف على المؤثر الصالح والمحل القابل والشرط المحصل للأثر وانتفاء المانع الذي يمنع منه ، كما قال تعالى : ﴿إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد﴾ فالمحل القابل هو القلب الحي الذي يعقل عن الله كما قال تعالى ﴿لينذر من كان حياً﴾ أي حي القلب ، وأما الشرط المحصل للتأثر بالوحي فهو إلقاء السمع بصدق الإصغاء وهذا في قوله : ﴿أو ألقى السمع﴾ وأما شهود القلب فهو حضوره وانهماكه بالتدبّر ، وذلك في قوله : ﴿وهو شهيد﴾ مستمع لكلام الله غير غافل عنه ولا ساه .

وهذا إشارة إلى انتفاء المانع من حصول التأثير وهو السهو والغفلة فإذا حصل المؤثر وهو القرآن والمحل القابل وهو القلب

الحي ووجد الشرط وهو الإصغاء وانتفى المانع وهو اشتغال القلب وذهوله عن خطاب الله إلى غيره ، حصل الأثر وهو الانتفاع والتذكير ـ وإذا تحقق ما ذكرناه في هاتين الفائدتين حصل الإيمان وتكونت المجتمعات الصالحة ، أما إذا انعكس الأمر من هاتين الفائدتين فإنه بضرورة الحال يكثر الفسق والفجور حتى يصل إلى الكفر أو تشعب النفاق المشين الذي مضى ذكر بعض أوصاف أهله وسيأتي مزيد لذكر أوصافهم الخبيثة في تفسير عدد من السور المقبلة إن شاء الله وبالله التوفيق .

وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلاً ، يضل به كثيراً ويهدى به كثيراً ، وما يضل به إلا الفاسقين ، الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون﴾ .

المعنى أنه ليس الحياء بمانع لله سبحانه من ضرب الأمثال بهذه المخلوقات الصغيرة الحقيرة في نظركم ، أيها الكفار والمنافقون كالبعوض والذباب والعنكبوت فإن فيها من دلائل القدر ، وبدائع الصنع ما يحير العقول ويشهد بحكمة الخالق ، فإنه كما لم يستنكف عن خلقها لا يستنكف عن ضرب المثل بها كما ضرب المثل بالذباب في الآية ١٧٢ من سورة الحج ، وبالعنكبوت في الآية ٤١ من سورة العنكبوت .

وذلك أن الله لما ضرب للمنافقين المثلين السابقين المثل الناري

فيمن استوقد ناراً والمثل المائي كصيب من السماء قالوا ـ الله أجل وأعلى من أن يضرب الأمثال ـ كما أن الكافرين لما سمعوا بضرب المثل لآلهتهم بالذباب والعنكبوت قالوا ـ أي شيء يصنع من ذكر ذلك وهم يقصدون نسبة القرآن الذي فيه تلك الأمثال لمحمد ﷺ لا إلى الله فأنزل الله هذه الآية . إن ما استنكره السفهاء وأهل العناد والمراء واستغربوه من أن تكون المحقرات من الأشياء مضروباً بها المثل ، ليس بموضع للاستنكار والإستغراب لأن التمثيل يصار إليه لما فيه من كشف المعنى ورفع الإلتباس وإدناء المتوهم إلى المشاهد وتقريب البعيد إلى الأذهان . فإن كان الممثل عظيماً كان المتمثل به مثله ، وإن كان حقيراً كان المشبه به حقيراً فليس العظم والحقائق إلاّ بالنسبة للشيء المضروب من أجله المثل .

فلما كان المعبود من دون الله والمرجو من دون الله أحقر وأعجز من أن يخلق الذباب بل لا يستطيع استرجاع ما سلبه الذباب منه سار ضرب المثل بالذباب ، وكذلك القول في العنكبوت وغير ذلك مما التمثيل به صادق على الممثل له ، ولكن القوم ظنوا أنهم وجدوا في ضرب الأمثال بهذه الأشياء مجالاً للتشكيك في صدق الوحي بحجة أن هذه الأمثال فيها تصغير لهم وتحقير لآلهتهم ، ولا يمكن صدورها من الله فإنه يتعالى عن التمثيل بكل حقير وهذا من فرط جهلهم وشدة لعب الشيطان بعقولهم وإلا فالله خالق الكبير والصغير خالق البعوضة والجمل والمعجزة الموجودة في الجمل وما فوقه

موجودة في البعوضة والذباب وما دونها لأنها معجزة الحياة معجزة الروح التي هي من أمره سبحانه لا يعلمها إلا هو .

وليس في ضرب الأمثال منقصة بل على العكس ، كما قال تعالى في الآية ٤٣ من سورة العنكبوت : ﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون﴾ وإن كان الغرض التأثير فالبلاغة والحكمة تقضي بأن تضرب الأمثال لما يراه تحقيره والتنفير عنه بحال الأشياء التي جرى العرف بتحقيرها واعتادت النفوس النفور منها خصوصاً إذا كان فيها مناسبة لحال الممثل به كما أسلفنا .

ثم إن لله حكمة في ذلك وهي تمييز الخبيث من الطيب وظهور علمه فيه بادياً واضحاً للمؤمنين ولذا قال سبحانه : ﴿ فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم﴾ لأن إيمانهم بالله يجعلهم يتقبلون كل ما يصدر عنه برحابة صدر وانشراح خاطر لما يعرفون من حكمة ويعتقدونه على ما يليق بجلاله ويسلمون له تسليماً لاعتقادهم أحقيته وكفايته وانفتاح قلوبهم المتنورة من الله على مداركه وثقتهم بوجود الحكمة في كل ما يصدر عن ربهم فيستضيئون أن الباطل لا يحرم حوماً .

وأما النصف الثاني من الكافرين والمنافقين وهم الذين غشى الجهل على بصائرهم وانحجب عنهم نور الله لانقطاع صلتهم به يتساءلون عن خبث وتشكيك فيقولون : « ماذا أراد الله بهذا مثلاً » يقصدون الإنكار والتشكيك بلفظ الإستفهام لقلة أدبهم مع الله وحرصهم على الصد عن سبيله وهكذا المرتاب

يذهب به جدله إلى إنكار الأمثلة والقياس على ربه وهو لا ينكرها على نفسه ولا على الناس وفي الآية إشعار بنسبة الحياء إلى الله سبحانه وقد صح الحديث بذلك ومذهب السلف إيراد هذا وأمثاله على ما ورد بدون تأويل ولا تعطيل ولا تشبيه بل مع اعتقاد التنزيه لأنهم لا يقيسون صفاته على صفات المخلوقين كشأن الخلف الذين أضاعوا أوقاتهم فيما لا طائل تحته .

هذا وللأمثال شأن عظيم في إحقاق الحق وإظهار زيف الباطل فهي مشكاة الهداية ونبراسها وميزان البلاغة وقسطاسها المستقيم ، قال العلامة عبد القاهر الجرجاني إمام البلاغة (إعلم إن مما اتفق العقلاء عليه أن التمثيل إذا جاء في أعقاب المعاني أو برزت هي باختصار في معرضه ونقلت عن صورتها الأصلية إلى صورته كساها أبهة وأكسبها منقبة ورفع من أقدارها وشب من نارها وضاعف قواها في تحريك النفوس لها ودعا القلوب إليها ، فإن كان مدحاً كان أبهى وأفخم وأهز للعطف وأجلب للفرح وأغلب على الممتدح وأوجب شفاعة للمادح وأولى بأن تعلقه القلوب .

وإن كان ذماً كان مسه أوجع وميسمه ألذع ووقعه أشد وإن كان حجاجاً كان برهانه أنور وسلطانه أقهر وبيانه أبهى ، وإن كان افتخاراً كان شأوه أبعد وشرفه أجد ولسانه ألد ، وإن كان اعتذاراً كان إلى القبول أقرب وللقلوب أخلب وللسخائم أسل وللغضب أفل وعلى حسن الرجوع أبعث ، وإن كان وعظاً كان أشفى للصدر وأدعى إلى الفكر وأبلغ في

التنبيه والزجر وأجدر بأن يبريء العليل ويشفي الغليل ) انتهى باختصار .

ولذلك فالمؤمنون يعلمون أنه الحق فيؤمنون به ويذعنون له فتزداد قلوبهم نوراً على نور ويزدادون أجوراً . وأما الكافرون فيزدادون ريبة وانحرافاً وهذه حكمة الله من ضرب الأمثال كحكمته من ذكر خزنة النار كما سنوضحه إن إن شاء الله ، ولذا قال تعالى : ﴿ يضل به كثيراً ﴾ أي من المنافقين والكافرين ممن يزدادون ضلالاً فوق ضلالهم ورجساً إلى رجسهم « ويهدى به كثيراً » من المؤمنين المستحقين الهداية الطالبين ثواب الله الخائفين من عقوباته ، فهذه الأمثال المضروبة ينتفع بها الذين يقدرون الأشياء بغاياتها ويزداد المنكرون لها ضلالاً وما سبب ذلك إلا الفسوق الذي يجر صاحبه إلى أفظع دركات الشر والضلال ، ولذا قال تعالى : ﴿ وما يضل به إلا الفاسقين ﴾ الخارجين عن هداية الله وطاعته .

فالفسق في اللغة هو الخروج ويسمّى الكافر فاسقاً لخروجه عما ألزمه العقل واقتضته الفطرة وفي ذلك إيماء إلى أن علة إضلال الفاسقين خروجهم عن السنن الكونية التي جعلها الله عبرة لمن تذكر ، فقد انصرفت أنظارهم عن التدبر في حكمة الأمثال إلى حقارة الممثل به لعمايتهم عن صحة الإنطباق الظاهرة التي لا تخفى إلا على عيان البصيرة من عباد الهوى ، وليس المراد بالفاسقين ، ما هو معروف بالمصطلحات الفقهية من العصاة فإنها اصطلاحات حادثة لا يصح تأويلها لمدلول

التنزيل فإن الفاسقين في القرآن هم الكافرون لرسوخ الضلال في قلوبهم وأعمالهم وأحوالهم . ولذا وصفهم الله بما يفيد غاية الكفر من ثلاثة أصول فظيعة قبيحة .

(أحدها) قوله : ﴿ الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ﴾ والعهد المجمل هنا يشمل العهد الفطري والعهد الديني الموثق من الله توثيقاً حسياً ومعنوياً فعهد الله الفطري هو ما ركب فيهم من العقول والأحاسيس التي يدركون بها السنن الكونية ويعرفون بها صدق ما جاء به الرسل . أما عهده الديني فهو الوحي الذي جاءت به الرسل مؤيدة بالحجج والبراهين وآخرهم محمد ﷺ ونقض العهد الفطري هو سوء استعمال ما وهبهم الله من الأحاسيس والأفئدة حتى كان لهم قلوب لا يفقهون بها وأعين لا يبصرون وآذان لا يسمعون بها .

ولأهل الكتاب نصيب فظيع من نقض عهد الله بعد ميثاقه لأنه أخذ عليهم العهد في التوراة على العمل بها وعلى الإيمان بمحمد ﷺ الموصوف فيها بأوصاف جعلتهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم فعهد الله الديني مكرر توثيقه على اليهود فأصبحوا ناقضين لعهود الله جميعها وكافرين بالتوراة لكفرهم بالقرآن .

أما كفار هذه الأمة ومنافقوها فقد نقضوا عهد الله الفطري المشار إليه في الآيتين ١٧٢ و١٧٣ من سورة الأعراف وهي قوله تعالى ﴿ وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين ، أو تقولوا إنما أشرك

آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون﴾
وهذا العهد الفطري لا يقدر كافر التهرب منه بأي وسيلة لأن
الله جعل فيه ما يذكره إياه من آياته الكونية والنفسية التي تراها
عينه وتسمعها أذنه ويبصرها قلبه ، ثم نقضوا العهد الديني
المدعم بوحي عظيم يصور لهم ما غاب كأنه مشاهد ويخبرهم
بأحوال الأمم الماضية ما كانوا يجهلونه قبله تمام الجهل ، كما
قال تعالى ﴿ تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها
أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين ..﴾ .

فهذا العهد الذي أقامته الرسل على اممهم وأخرهم محمد ﷺ
ثم نقضوا العهد الثالث عهد القرآن بنبذه وراء ظهورهم
واطراحهم لجميع ما فيه ، وقد قال ﷺ : إن هذا القرآن
حبل الله المتين ( يعني عهده ) والنور المبين والصراط المستقيم
والعلم النافع عصمة لمن تمسك به ونجاة لمن اتبعه ) وقال تعالى :
﴿ واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا﴾ وحبل الله هو
القرآن بلا خلاف وقد قضى الله بحصول الشقاق على من تولى
عنه كما سيأتي بيانه عند الكلام على الآية ١٣٨ من هذه السورة .

فالكفار والمنافقون في كل وقت قد نقضوا عهود الله
جميعها فهذا هو سبب إضلالهم لأن نور الفطرة قد انطفأ من
قلوبهم ومن اتصف بهذه الصفات المذكورة في هذه الآية
فإن كل ما ينزله الله عليه من الوحي أو يمنحه به من ضرب
الأمثال أو غيرها يكون سبباً في إضلاله لأنه لا يتبصر بها
فلا يقف على المقصود ولا يتفكر في وجه الحكمة فيه بل يلجأ

إلى الشبهات في تقرير المجمل بالباطل وإلا فليس الله خالق الضلال والكفر . وقد أوضح الإمام الرازي في تفسيره الكبير هذه الحقيقة ورد على القدرية والجبرية وقرر الحق من ذلك بكلام حسن .

والثاني من أصول ضلالهم أنهم « يقطعون ما أمر الله به أن يوصل » فهم أولاً نقضوا حبل الله المحكم الطاقات الموثق الفتل بنبذهم وصاياه في وجهه ورفضهم لتشريعاته وتفريقهم بين رسله وهم ثانياً قطعوا هذا الحبل المتين الذي تحصل به الصلة بين الوشايج البشرية وتحقق به الوحدة الأخوية بين شعوب الأرض جميعها لو لم يقطعوه فكلمة ( ما ) هي من أدوات العموم وتستعمل في الخير والإستفهام للعاقل وغيره ولذا عبر الله بها لشمول قطعهم جميع أنواع القطعة فإنهم قاموا بكل فظيعة لا يرضاها الله كقطيعة الرحم التي بينهم وبين المصطفى ﷺ والتي بينهم وبين المؤمنين المجاورين مع أن سبحانه أوجب على أتباع الأنبياء أن يكون الحبل موصولاً بينهم وبين المؤمنين فقطعه المنافقون وأهل الكتاب عنهم واتصلوا بكل كافر فكل من أعرض عن موالاة المسلمين المؤمنين في كل زمان ومكان فقد قطع ما أمر الله به أن يوصل من الميثاق الإسلامي حبل الله الذي يربط العربي بالعجمي والشرقي بالغربي والأبيض بالأسود وبجميع الملونين الذين من نابذ نوعاً منهم فقد قطع ما أمر الله به أن يوصل . ومما ينبغي معرفته في كل ميدان من ميادين الحياة هو أن جميع ما فيه رفض

خير أو فعل شر هو يقطع ما بين الله وبين صاحبه من الوصلة التي هي المقصودة بالذات من كل وصل وفصل لأن العامل للخير يجلب الخير على عباد الله في أي شأن من شؤون الحياة والعامل على الشر يجلب عليهم الشر .

وأعظم صلة يأمر الله بوصلها هي صلة العقيدة الإسلامية والأخوة الإيمانية بين جميع البشر على اختلاف أجناسهم وألوانهم وتباعد أقطارهم والجناية على هذه الصلة فضلاً من قطعها تكون أعظم من كل جريمة والعامل على فتنة المسلمين عن هذا المبدأ الأخوي العام إلى أخوة محدودة مقصورة على عنصر أو بلد فإن جريمته أشد من القتل وأكبر ويكون عمله قرة عين أعداء الإسلام من اليهودية العالمية وأذيالها وبهذا كانت مهمة الماسونية اليهودية تركيز النعرات القومية لتفتيت الوحدة الإسلامية بشتى أنواع المكر والدجل وقلب الحقائق وتشويه التاريخ باختلاف المفتريات تارة وتجسيم الأخطاء تارة وبث الحسد وإلهاب نيران الحقد وقد تم لهم ما أرادوا بل تحمس لما يريدونه فئام من كل بلد ومن كل جنس .

والعجب أنك إذا أمعنت النظر ترى أغلب رؤساء القوميات ليسوا من أهل القومية التي يدعون إليها ويتحمسون لها حتى إننا نرى أعاجم من تركي وقبطي وشركسي وبخاري وفرغاني وقوقازي وأشكالهم يتحمسون للعروبة ويصنفون في سبيلها ما يهدم ملة إبراهيم ومحمد ﷺ وهم لم يبرزوا إلا على حساب المسلمين وقد تفيئوا من فضل أهله ظلا ظليلاً ولكن

الأيدي الخفية أو القوة الماسونية الخفية تحركهم وتعدهم وتمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً ، فكل من انحرفت فطرته لا بد أن يتصف بصفات أسلافه المنحرفين الذين شخص الله لنا طبيعتهم وصور لنا نماذج من أصول سيرتهم في هذه الآية الكريمة .

فكل عهد بين الله وبين هذا الصنف من الناس فهو منقوص ، وكل ما أمر الله به أن يوصل فهو مقطوع ولهذا تفككت القوى وانحلت الروابط وحصل التمزق وأقيمت حدود اصطناعية حتى بين أرباب القومية الواحدة نتيجة الجريمة الأولى التي هي نقض ميثاق الله ، وجرت قطع ما أمر الله به أن يوصل ، وهكذا الجريمة تجر جريمة أخرى أو جرائم عديدة .

والأصل الثالث من أصول كفرهم الإفساد في الأرض بجميع أنواع الإفساد ، ولذا قال تعالى : ﴿ ويفسدون في الأرض﴾ .

# فوائد من تمثيل المنافقين في القرآن - ٢

وأعظم إفساد وأخطره شيئان يقومون بهما دائماً ، هم وورثتهم من المنافقين وتلاميذهم إلى يوم القيامة .

أحدهما : إهمال هداية العقل وهداية الدين وقطع الصلة بين المقدمات والنتائج وبين المطالب والأدلة والبراهين .

وثانيهما : صدهم عن سبيل الله بدعوتهم إلى ما يريدون من كل باطل وما ينتحلونه من مبادئهم العصبية ومذاهبهم المادية وما يقومون به من الإغراء على الفواحش وتحبيب المنكرات باسم التطور والمدنية ، وما يقومون به من عداوة الأمر بالمعروف ، وأهله فهم الفاسدون بأنفسهم المفسدون لغيرهم من كل من تمكنوا على إفساده سواء في العقيدة أو في الأخلاق ، ولذلك قضى الله عليهم بالخسران وحصره فيهم حصراً بقوله : ﴿ اولئك هم الخاسرون﴾ الذين لهم الخزى في الدنيا خزى الذل وخزى الفرقة والشقاق ، وخزى البؤس والإرهاب والفتك ، الذي يحصل عليهم بتقلب الحكام والثورات المتلاحقة ، وضياع الطاقات وجميع معاني التعاسة التي دعا عليهم بها الرسول ﷺ . ثم الخزى في الآخرة

يوم يقوم الأشهاد .

فحظوظهم منحصرة في الخسران بجميع أنواعه حكماً من الله الذي لا مبدل لكلماته يبصره ذوو البصائر السليمة ويخفى على من يغتر بالمظاهر يرونهم مستمتعين باللذات والشهوات فيحسبون أنهم في سعادة يغبطون عليها ولو سبروا الأغوار وابتلوا الأخبار لأدركوا ما هم فيه من الإزعاج والإرهاق والحسرات وظلمة النفوس وفساد الأخلاق ووحشة الصدور والتهابها بأنواع الحقد المتجدد واستيلاء الأوهام والجشع المسعور وانعكاس المقاصد عليهم من كل ناحية ، فأعمالهم جميعها هدم لا بناء وإفساد لا إصلاح وتخريب متواصل للأرض والقلوب ، وبعد فإن بين سبب ضلال الفاسقين من نقضهم ميثاق الله الذي هو الحجة القائمة على عباده والذي يكررونه مع الله حيث حكى عنهم (وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم رسول ليكونن أهدى من إحدى الأمم فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفوراً ) وبقولهم : (لولا أرسلت إلينا رسولاً فنتبع آياتك ونكون من المؤمنين ) فنقضوا جميع عهود الله الفطرية والشرعية بأنهم قطعوا ما أمر الله به أن يوصل وخصوصاً وصل حبلهم بحبل المؤمنين فعكسوا الأمر ووصلوه بحبل الكافرين وتمادوا بعداء المؤمنين والإفساد في الأرض .

فلا عجب إذا صاروا يضلون حتى بما هو سبب من أشد أسباب الهداية تأثيراً وهو القرآن الذي يصرف الله فيه من أنواع الحكم والأمثال والوعد والوعيد وأنباء الغيب والسنن الكونية

لعلهم يذكرون ولكن لرسوخهم في الفسق ونقضهم العهود صاروا كالمنطبعين في الضلال والله سبحانه قد وثق العهد الفطري بجعل العقول بعد الرشد قابلة لإدراك السنن الكونية في الخليقة ووثق العهد الديني بما أيد أنبياءه ورسله من الآيات الباهرة الخارقة والتشريعات المحكمة وقد ربط العهد الأول بالثاني فمن أنكر الرسل ورفض الإهتداء بهديهم ولم يحترم اتباعهم فهو فاسق عن سنن الله في تقويم البنية البشرية وإنمائها بالروحانيات المكملة لإنسانيتها المتصلة على الملآئكة فيصبح ناقضاً لعهد الله قاطعاً ما أمر الله به أن يوصل فتنقلب جميع أحواله إلى الفساد والإفساد الذي لا يمكنه الخروج منه لفساد فطرته ومروج عقله وتصوراته .

ثم إن ههنا مسائل .

الأولى : قوله : ﴿ يضل به كثيراً ويهدى به كثيراً ﴾ أشعرت هذه الآية الكريمة بمساواة المؤمنين مع الضالين في الكثرة والمؤمنون قليلون بالنسبة إليهم حساً وشرعاً ، كما قال تعالى : ﴿ وقليل من عبادي الشكور ﴾ إلى غير ذلك من نصوص الوحي فلم جعلوا في هذه الآية كالضالين في الكثرة ؟ والجواب على ما حققه كبار المفسرين أن الحكمة في التسوية إفادة أن المؤمنين المهتدين على قلتهم أجل فائدة وأكثر نفعاً وأحسن اثاراً من أولئك الكفار الضالين على كثرتهم لأن المؤمنين كما قيل : ( قليل إذاً عدوا كثير إذا شدوا ) وكما قيل أيضاً :

ولـــم أر أمثـــال الرجـــال تفاوتا

لدى الفضـــل حتى عد ألف بواحـــد

ولذلك جعل الله الواحد منهم في القتال مقام عشرة في حال القوة والعزيمة ومقام اثنين في حال الضعف . ولقد كان من آثار ذلك العدد القليل من المؤمنين الأولين سيادتهم لجميع العالمين .

والثانية : في تقديم الإضلال على الهداية في قوله تعالى : ﴿يضل به كثيراً ويهدى به كثيراً﴾ قالوا لأن سببه ومنشأه من الكفر متقدم على بعثة محمد ﷺ وبعضهم قال متقدم على نزول القرآن ، وإنما جاءت الآيات المبنية بالأمثال لإخراجهم مما كانوا عليه من ظلمات الباطل إلى نور الحق ، ولكنها زاد الفاسقين رجساً إلى رجسهم لأن نور الفطرة قد انطفأ من صدورهم بما جنوا عليه من التمادي بالباطل ونقض عهود الله العظيمة وقطعهم ما أمر الله به أن يوصل من التصديق بمحمد ﷺ فقطعوه بالتكذيب والعصيان ومن مخالفة أقوالهم لأعمالهم فلم يصلوه ومن تكذيبهم بالأنبياء السابقين الذين أمروا بالإيمان بمحمد ﷺ وصلته بالأعزاز والنصرة فقطعوه بالانتقاض والخذلان ومن صلة الرحم والقرابة بينهم وبين المؤمنين من عشيرتهم فقطعوها ببغضهم وعداوتهم على الإسلام ومن قطع الصلة الكبرى في الدين الذي يوجب الحب لله والموالاة في الله فعكسوا الأمر ، فهم والعياذ بالله يضيعون حق الخلق كما ضيعوا حق الخالق وهذا من ضروب الإفساد

في الأرض . وقال بعض المفسرين إن في الآية لفاً ونشراً لأنه تعالى ذكر الضلال أولاً وهو للفريق الثاني الفاسق والهدى ذكراً آخراً وهو للفريق الأول والله أعلم .

( فصل ) وإذا كان النقض في اللغة العربية هو إفساد ما أبرم سواء كان الإبرام حسياً أو معنوياً فان نقض عهد الله أو عهوده الفطرية والشرعية نقض لما أبرم إبراماً معنوياً وإفساد له علمنا أنهم بإفساد هذا المبرم إفساداً معنوياً قد تسببوا إلى جميع أسباب الفساد والإفساد الحسي والمعنوي فإنه بخروجهم عن سنة الله وإفسادهم ما أبرمه الله من العهد الفطري فسدت عقولهم ومن فسد عقله فسدت جميع تصوراته ومن فسدت جميع تصوراته فلا عجب أن يعبد ما ينحت بل لا عجب أن يصور من التمر تمثالاً يعبده فإذا جاع أكله دون أي تفكير أو اعتبار كما فعل ذلك عمر بن الخطاب حين الجاهلية لما كان مشركاً وهو عمر المشهور في الجاهلية بشجاعته وفراسته لكن فساد التصور جعله يتردى بعقليته إلى هذه الحال المضحكة التي لم يشعر بسخافتها إلا بعد الإسلام الذي استنارت به بصيرته رضي الله عنه .

ولا عجب ممن فسدت تصوراته أن يفقد الإتكال على الله وأن يقتل أولاده خشية أن يطعموا معه كما أوضح القرآن ذلك ونهى عنه وها نحن الآن نرى الذين يتبجحون بالعلم والتنور والمدنية ينادون بتحديد النسل خشية من عدم كفاية الأرزاق والأعمال في الأرض ، ويروجون هذه السخافة بين

الناس بدون ترو فيالها من سخافة أشنع من سخافة الأوائل الأميين .

ومن أفسد المبرم من عهد الله الشرعي فأخل بالواجبات ولم يبال بانتهاك الحرمات فما هذا إلا لفساد عقله وفساد جميع تصوراته لأنه في الجملة لا ينكر الله ولا ينكر فضله فكيف يعصيه ويخونه في عهده الشرعي ؟ ولكن فساد التصور يجعله مع هذا يحرم ما أحل الله ويبيح ما حرم الله فيكون على أشنع حالة من الكفر والعياذ بالله ، ثم ينجر بذلك إلى قطع ما أمر الله به أن يوصل فيحصل الشر المستطير من الفرقة والشقاق وموالاة الكفرة ومجانبة المسلمين أو معاداتهم فتفرق الصفوف وتبدد الطاقات ويستعلي أعداء الإسلام على أهله بسبب المنافقين الذين قطعوا ما أمر الله به أن يوصل من الميثاق الإسلامي الذي يربط المسلمين بعضهم ببعض على اختلاف أممهم وشعوبهم فيجعلهم كالجسد الواحد يتألم بعضهم لبعض ويساعد بعضهم بعضاً ويغضب كل منهم لغضب الآخر ويثور لكرامته ويرخص النفس والنفيس في سبيله لأجل الحب في الله والبغض في الله الذي هو لباب الدين وثمرته .

فما أعظم جناية المنافقين على المجتمع الإسلامي بضلالهم العظيم وفسقهم المبين الذي جر على الأمة جميع أنواع الوبال ، هذا زيادة على الإفساد في الأرض ، فما أعظم نعمة الله علينا في تشخيص طبائع الكافرين والمنافقين وتصوير نماذجهم وتوضيح آثارهم الهدامة للمجتمع الإسلامي الذي ما زال

يواجه شرهم منذ عهد النبوة إلى زمننا هذا الذي تفاقم فيه شرهم وإزداد رجسهم وفسادهم لكن باختلاف في الأسماء والمظاهر ، ولا أعظم من فسادهم في فتنة الناس عن ملة إبراهيم ـ عليه السلام ـ وتوجههم إلى ما يخالفها من مخططات الماسونية التي تولى كبرها طواغيت اليهود والنصارى والتي برز بسببها من يخدم دولة اليهود من حيث يشعر أو من حيث لا يشعر .

ذلك أن استباحة ما حرم الله كفر صريح يحرم أهله مدد الله ونصره زد على ذلك أنواع الشر والفسوق والعصيان الذي لا يمكن معه تحقيق جهاد ولا ثبات في مواطن الجهاد ، والله الهادي إلى سواء السبيل .

قوله تعالى : ﴿ كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون ﴾ ؟ .

هذه الآية الكريمة متصلة بما قبلها من الآيات ومرتبطة بها إرتباطاً وثيقاً وهذا التساؤل فيها موجه إلى الفاسقين ومبني على إيراث ما عدد من قبائحهم السابقة لتزايد السخط الموجب مشافهتهم بالتقريع والتوبيخ لضلالهم بالأمثال التي هي من أشد أسباب الهداية تأثيراً وبنقضهم العهود الإلهية الموثقة وقطعهم ما أمرْ الله به أن يوصل فيوجه الله هذا الاستفهام الإنكاري التعجبي لأن معهم من الآيات لذوي العقول ما يصرفهم عن الكفر ويدخلهم في الإيمان .

فهذا الاستفهام فيه استنكار لواقعهم واستبعاد لحصوله ولذا

جاء مقترناً ببرهان نفسي ظاهر ناصع مؤيد لما قبله من البراهين ومذكر لهم حقيقة واقعهم التي لا يمكنهم إنكارها أو إنكار أكثرها ، ولا يسوغ لهم الإقامة على ما هم من الكفر الذي لا وجه لحصوله سوى العناد والمكابرة فيقول : ﴿ كيف تكفرون بالله﴾ يعني بأي صفة من صفات الكفر تأخذون وبأي شبهة تعتمدون وحالكم في تلك الموتتين والحياتين تأبى عليكم ذلك ولا تدع لكم عذراً ولا لشكوككم مجالاً ، وذلك أنكم « كنتم أمواتاً فأحياكم » يعني كنتم قبل هذه النشأة الأولى أمواتاً قد انبثت أجزاؤكم في الأرض في سائر طبقاتها الجامدة والسائلة والغازية الهوائية وغيرها من جميع الأنواع لا فرق بينها وبين أجزاء سائر النبات والحيوان في ذلك إذ لا حياة فيها ولا روح فخلقكم أطواراً من سلالة من طين حتى كنتم بالطور الأخير في أحسن تقويم وفضلكم على غيركم بموهبة العقل .

وليس معنى إماتتهم الأولى خروج أرواحهم من أجسادهم كما زعمه بعض المؤولين لأن هذا الخطاب ليس موجهاً إلى أهل القبور بعد إحيائهم في قبورهم لأن التوبيخ هنالك يكون توبيخاً على ما سلف من إجرامهم وليس له معنى هنا إذاً التوبيخ هنا توبيخ استعتاب واسترجاع فقوله تعالى : ﴿ كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم﴾ توبيخ مستعتب عباده وتأنيب مسترجع خلقه من الكفر إلى الهدى ولا إنابة في القبور بعد الممات ولا توبة فيها .

وقد حكى المفسر الكبير أبو جعفر بن جرير الطبري روايات كثيرة عن الصحابة والتابعين اختار منها روايتان فيهما مناسبة للمقام .

أحدهما : عن ابن مسعود وناس من الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ قالوا في قوله تعالى : ﴿ كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً .. إلخ﴾ يقول لم تكونوا شيئاً فخلقكم ثم يميتكم ثم يحييكم يوم القيامة .

وثانيهما : عن ابن عباس في قول الله عنهم ( أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين ) قال كنتم تراباً قبل أن يخلقكم فهذه ميتة ثم أحياكم فخلقكم فهذه إحياءة ثم يميتكم فترجعون إلى القبور فهذه ميتة أخرى ثم يبعثكم يوم القيامة فهذه إحياءة فهما ميتتان وحياتان ، فهو قوله تعالى ﴿ كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون﴾ .

وهذا هو الصحيح الذي لا يرد عليه من الإيرادات ما يؤبه له أبداً وهنا قول آخر وجيه يؤيد قول من فسر الميتة يؤيد قول من فسر الميتة الأولى بالنطفة وهو أن الموتة الأولى مفارقة نطفة الرجل جسده إلى رحم المرأة فهي ميتة من حين فراقها للجسد الذي خرجت منه إلى أن يحييها الله بنفخ الروح فيها برحم المرأة فتخرج بشراً سوياً ثم تموت بعد استيفاء أجلها المقدر فهذه الموتة الثانية ثم تحيا حين النفخ في الصور فهذه الحياة الثانية ، ووجه مناسبة هذا القول تعليلهم بأن كل شيء من ابن آدم حي ما لم يفارق جسده الحي وكل ما فارق

جسده الحي مات فكذلك نطفته حية بحياته فإذا خرجت منه ماتت حتى يحييها الله ثانية في رحم المرأة وهكذا وقوله تعالى : ﴿ ثم يميتكم﴾ أي بقبض أرواحكم التي فيها قوام حياتكم فتنحل أبدانكم بمفارقتها إياها وتعود إلى أصلها ميتة منبثة في طبقات الأرض حتى ينعدم وجود قاعدي (عجب الذنب ) .

ثم إنه سبحانه وتعالى « يحييكم » حياة ثانية كما أحياكم بعد الموتة الأولى حياة تكون أرقى وأكمل من الحياة السابقة إن أنتم حققتم طاعة الله والإيمان به لأنكم في الحياة الثانية ( إليه ترجعون ) فينبئكم بما عملتم ويحاسبكم على ما اقترفتم .

وإذا كان هذا مبدؤكم وذلك منتهاكم فكيف تكفرون وتنكرون أن القرآن من عنده وتنكرون أن يضرب لكم أمثالاً تهتدون بها وتستنكرون أن يبعث فيكم رسولاً منكم مع أنه لو ارسله من غير جنسكم لتغير موقفكم ومنطقكم .

حقاً إن الكفر بالله مع قيام هذه الدلائل الواضحة في أنفسهم وفي الأكوان مما تقدم شيء قبيح يمتنع وجوده من عاقل يحترم نفسه إذ لا حجة له على مقابلة هذه النعم بالكفر والإعراض والمكابرة ، فمن عظيم هداية الله في وحيه المبارك أنه يواجه البشر بحقائق واضحة ناصعة لا بد لهم من التسليم بها والاعتراف بأحقيتها وإسلام وجوههم للخالق الجبار الرزاق الوهاب القهار ، لقد كانوا موتى بين أطباق التراب فأحياهم ويسر لهم معائشهم كما فصلناه . ثم يميتهم أخرى موتة

يشاهدونها في آبائهم وإخوانهم وأقرانهم لا يمكنهم إنكارها أما أحياؤهم ثانية وحشرهم إلى الله فهو أمر واضح حقيقي يدلل الله عليه في آياته الكونية بما لا ينكره إلا المعاندون لأنه إذا تقرر خلق الله لهذا الخليقة ابتداءاً فاعادتها أسهل عليه كما نص على ذلك في الآية ٢٧ من سورة الروم ﴿وهو الذي يبدؤ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم﴾ فكيف يكفر بالله من كان وجوده من الله وساكن في ملك الله يرتع في فضل الله ويتمتع بضيافة الله ؟ وههنا مسائل .

الأولى : قوله تعالى : ﴿ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون﴾ ما السر في تراخي الإرجاع إلى الله عن الحياة الثانية حياة البعث ، الجواب إن هذا التراخي بتعبير النص عبارة عن تأخير الحساب والجزاء وطول زمن الموقف والإنتظار كما ورد في حديث الشفاعة العظمى وغيره من الأحاديث فلذا ساغ الإتيان بكلمة (ثم) التي هي للتراخي والترتيب بعد ذكر الحياة الثانية ، والله أعلم .

الثانية : لقائل أن يقول كيف يحتج عليهم بالحياة الثانية قبل الإيمان بالوحي الذي هو دليلها وحجتها ؟ والجواب من وجهين .

أحدهما : أن تمثيل إحدى الحياتين بعد الموت بالأخرى داحض لحجة من يزعم عدم إمكان الثانية لأن ما جاز في أحد المثلين جاز في الآخر .

وثانيهما أنه احتجاج على مجموع الناس بما عليه الكثير منهم ولا عبرة بالشذاذ المنكرين للبعث لأن الاحتجاج بالحياة الأول بعد الموتة الأولى كاف للتعجب من كفرهم بالله وإنكارهم أن يضرب الأمثال لهداية الناس زعماً أن هذا لا يليق بعظمته ،

ومن عادة كل مبطل ينكر آيات الله أن يسلك مسلك التلبيس في زعمه تعظيم الله تقريراً للسامعين وترويجاً لما يريد من باطله ولكن الله سبحانه يدلل لنا في آياته إلى أن من أوجد هذا الإنسان وجعله في أحسن تقويم وركب صورته من تلك الذرات الصغيرة والنطفة المهينة والعلقة الدموية أو الدودية والمضغة اللحمية لا يستحي أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها ، والكلام مع أنه مسوق لأبطال شبهات منكري الأمثال والقرآن الذي جاء بها فهو أيضاً محتو على تقرير التوحيد وتفنيد جميع أنواع الكفر بالله بأحسن عبارة وأفحم حجة وألطف منطق يدخل القلوب كما أنه يحتوي على تقرير الإيمان بالبعث وعدم استحالته بل سهولته ، كما مضى الكلام عليه والتذكير بآية الروم رقم ٢٧ تلك الآية المصرح بها إلى الإعادة أهون على الله من البدء يعني بدء الخليقة .

## ألدّ الخصام

﴿ ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ، ويشهد

الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام . وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ، ويهلك الحرث والنسل . والله لا يحب الفساد . وإذا قيل له : إتق الله ، أخذته العزة بالإثم ، فحسبه جهنم ولبئس المهاد ﴾ .

البقرة ٢٠٤ ـ ٢٠٦

... يخبر الله عباده بأخطر صنف من أصناف البشرية على الناس ، ذلك الصنف الذي هو من عتاة المنافقين ، وخبثاء الكافرين ، وأمهر المتملقين ، يظهر لك الموافقة على كل ما تريده ، ويغشك بما يعجبك من القول ، وقد يتعاون معك على كل عمل تقدم عليه ، ولكنه في الباطن يحفر لك الزبى[1] ، ويمد لك الأحابيل ، ويطوقك بالأشواك الشائكة حسياً ومعنوياً ، حتى يضرب ضربته اللازبة ، وهذا النوع من الناس خطير وكثير جداً خصوصاً في هذه الأوقات التي غلب على أهلها حب المادة والشهوات يكون لهم فيها مجال خصب يرتع فيه هؤلاء .

والله تعالى يدلنا على حقائق أحوالهم ، ومكنونات قلوبهم الخبيثة ، إذا حصل لهم نفوذ أو نجح لهم تدبير ،

---

(١) الزبى حفرة تحفر للأسد سميت بذلك لأنهم كانوا يحفرونها في موضع عالٍ .

أما قبل ذلك فهم على ما وصفهم الله ورسوله . يلبسون للناس جلد الضأن من اللين ، ألسنتهم أحلى من السكر ، وقلوبهم قلوب الذئاب ، قولهم يعجب كل سامع . ويشهد أحدهم الله على صحة ما يقول وعلى مطابقة قوله فعله .

ولهم تفنن عجيب في ذلك . ووراءهم من الكتل والأحزاب ما تحيطهم بهالة التعظيم وتروج دعاويهم المغشوشة . وتبرزها في أحسن المظاهر ، وتقوم بحملات منظمة ضد المصلحين الحقيقيين بتجسيم أخطائهم تارةً ، وافتراء الأكاذيب التي لا حصر لها تاراتٍ أخرى ، حتى يستلبوا عقول الناس ويكسبوا مودتهم ، والثقة بهم ويجعلوهم يحملون التذمر والحقد على من يريدون ضربته ليتخلى عنه أقرب صديق فإذا تمّ لهذا المنافق المخادع المتملق ما يريده ، واستطاع القضاء على خصومه ،... كشَّر عن أنيابه ، وأظهر اللدد في الخصومة ، فكان ألدَّ الخصام بالباطل ، وأفتن الناس وأبعدهم عن ضروب الحق ، وأشدهم عداوة لأهله ، فأظهر مكنون قلبه ـ من السعي في الفساد في الأرض ، وتحطيم الأمة وإهلاك الحرث والنسل وعمل كل ما ينقضه الله من أنواع الظلم والجور والإرهاب والبطش والتنكيل والتعذيب وبث جميع أنواع مفاسد الأخلاق ، وتحطيم الدين ، وإذلال أهله ، وإعزاز الفسقة ورفع الأراذل ،

وكبت الحرية ، وإخراس الحق ، وترويج الباطل ، وتحطيم التجارة والأعمال الحرة الموجبة للمنافسة النافعة للأمة في جميع أنواع معيشتها ، وإحاطتها بالأغلال التي تجلب عليها البؤس والفقر والشقاء ـ كما هو مشاهد في كل البلاد التي تغلب عليها هذا الصنف من الناس الذي وصف الله غايتهم بقوله : ﴿ وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ، ويُهلك الحرث والنسل ... ﴾ .

وأنظر ـ أيها المسلم المؤمن ـ كيف صوَّر الله لك شدة مكرهم ، وقبيح إفكهم ، أن الواحد منهم ﴿ يُشهد اللهَ على ما في قلبه .. ﴾ يعني من الصدق والنصح ، وهم خصم لدود شديد في العداوة وهذا المسلك في مخادعة المسلمين ، لو سلكه المسلم الصحيح ليخدع مسلماً بأدنى شيء ـ وهو على هذه الطريقة من توسيط الله في الموضوع ـ صار مرتداً عن الإسلام لأن فعله ليس كاليمين ، بل هو لعب على الله ، واستهزاء بعلمه المحيط بكل شيئ ، فمن قال لأخيه المسلم : إن مقامك عندي كذا وكذا أو إنني عامل لك كذا وكذا والله يشهد على ما في قلبي لك ، وهو في الحقيقة كاذب ، فهو مرتد عن الإسلام . ولكن هذا النوع الذي صور الله لنا حاله ، نوع عريق في النفاق ، لا يؤمن إلا بالمادة والنفعية والوصولية إلى مقاصده ـ مهما استخدم من المكر القولي والعملي.

( واللدد في الخصومة ) شدة العداوة والجدال . ومنه

قوله تعالى : ﴿ وتنذر به قوماً لُدّاً ﴾ مأخوذ من لديدَي العنق . وهما صفحتاه ، لأن شديد العداوة والخصومة يريد ـ من التغلب على خصمه ـ التحكم في رقبته . ـ

وقد وصف الله موقف المنافقين المغرضين العاملين ضد المؤمنين بثلاثة أوصاف خطيرة يعتمد عليها السامع ، وينجذب إليها حتى ينطبع بها :

أولها : حسن القول المعجب ، الذي يروق ويكون له وقع في القلوب .

وثانيها : توسيط الله ، بجعله شاهداً على هذا القول ، وموثقاً له ، وهذا من أعظم الجناية على الله سبحانه وتعالى .

وثالثها : المهارة في الجدل ، وقوة في الإقناع لقمع كل معارضة تقف أمام هذا المنافق .

وأعلم أن هذا النوع الذي نص الله على خطره يوجد في كل زمان ومكان ، ويلبس أهله ألواناً من الإيهام والتضليل ، بعضهم يدعي الوطنية والعمل لخير الوطن ، ويروج تحت هذا الشعار ما يريده من أنواع الخداع والتضليل ، ويدعي لنفسه ولرفاقه الإخلاص والخبرة ويرمي غيره إما بالرجعية والجمود ، أو بالخيانة والعمالة ونحو ذلك من الكلمات المنفرة من منافسيه ولو كانوا أشرف منه وأخلص .

وبعضهم يتبجح بالعمل لِصالح قومه ، ويكثر من شتم الاستعمار ، وإدعاء العمل للتحرر والمطالبة بالإصلاح

ويدس ضمن هذه الدعاوي ما يريده من الإلحاد والتخفيف من شأن الدين وأنه سيعمل له بعد تحقيق الوحدة الوطنية واطمئنان الأقليات ونحو ذلك من أنواع المخادعة للمسلمين حتى لا تثور ثائرتهم ، فهو جاد في هدم الدين وتحطيم العقيدة ، ويزعم أنه مخلص لا يرى المتاجرة بالدين بل يحترمه عن إقحامه في ميدان الحياة حتى يحصل على التحرر الكامل أو على الوحدة الشاملة ، وهناك يناصر العاملين للدين وبهذا الخداع يكسب دعاية ومحبة عند الدهماء . وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ ويشهد الله على ما في قلبه﴾ تنبيه لنا عن هذا المنافق المخادع ، أنه ـ لعلمه بحقيقة حاله وسوء ما يخفيه كأنه يخشى إحساس الناس بما في ضميره من الغش ، فيلجأ إلى الوسيلة الثانية في خداعهم بما هو أعظم من الحلف وهو إشهاد الله ، وذلك زيادة في إخفاء غشه وتغطية خداعه بأكبر وسيلة ينخدع بها المؤمنون وقد قال تعالى : ﴿ قل أي شيئ أكبر شهادة ؟ قل : الله شهيد بيني وبينكم﴾ .

وقد تفاقم غش هؤلاء في هذا الزمان ، وعظم خطرهم وأثرهم ، لانتشار وسائل الخداع من صحافة ووسائل إعلام أخرى تؤثر على أكبر مساحة من عقول الأمة وتستخدم أسوأ استخدام لغسل العقول من معاني الفضيلة والخير وحشوها بكل ما يريده أهل الباطل والنفاق من زيغ وتلبيس .

وشواهد التاريخ كثيرة للدلالة على خطر المنافقين وغشهم الذي يؤول إلى قتل أفرادٍ بل جماعات وتطاحن

أمم وشعوب وذهاب كثير من المخلصين وقوداً لنار الفتن التي يشعلها هؤلاء . وقصة عبد الله بن سبأ وأضرابه مشهورة ، وكذلك أضرابه من دعاة الدولة العبيدية ودعاة الدروز والقرامطة ، وغيرهم كابن العلقمي والنصير الطوسي ـ نصير الكفر والخبث ـ.

ولا تزال الماسونية اليهودية تبرز من عملائها من يتاجر بالقومية والوطنية ، ويظهر التظلم من الأوضاع ويتلهف على إصلاحها ، حتى إذا تمكن واستتب له أمر ، بدا منه ما كان يضمره .

وقصة انخداع الأتراك بالقومية الطورانية ، التي خسروا فيها البلقان وغيرها ، بسبب مكر الماسونية اليهودية القابعة وراء ستار جمعية الاتحاد والترقي ، وعملها على الإحاطة بالخلافة ، وإقامة حكم يديره ( يهود الدونمه ) أصبح مشهوراً.

وكم قاست الأمة العربية المسلمة من نكبات ونكسات بسبب مكر الذين يلعبون بعقول الناس ويتاجرون بالدين تارةً ، وبأنواع العهر السياسي ـ من قومية ووطنية ومذاهب مادية واشتراكية وبعثية تارة أخرى ـ.

وكم رأينا من المفتونين بحب المال أو الجاه والبروز من يخادع الناس بوساوس السياسة وأوهام الوطنية لأجل الوصول إلى مقصده . وكم رأينا من المفتونين بالشهوات ودعـاة الانحلال من يغش الناس باسم المدنية والتطور والحرية والتقدمية ونحوها ليجني على العقيدة والأخلاق ،

وإذا انبرى له من المخلصين من يدعو إلى الاعتصام بالدين ومكارم الأخلاق ، ليجمع الناس على الحق والفضيلة ، وليخلصهم من جيوش الفسق انبروا له بألسنة حداد ، ورموه بالتزمت والوحشية والرجوع إلى الوراء ، ونحو ذلك من الألقاب المنفرة للناس عنه والتي هم بها ألصق .

ودعاة الشر ـ ممن يريدون فتنة المؤمنين عن دينهم وأخلاقهم وإحداث القلاقل والفوضى والبلبلة لخدمة مطامعهم وأغراضهم الشخصية ، وتنفيذ مخططات الماسونية اليهودية ، يسترون مآربهم الهدامة بأسماء وشعارات براقة ، كالتحرير والنهضة والكرامة والتطور ومسايرة ركب الحضارة ، ولا يجدون من الجماهير من يتفطن لباطلهم ويدينهم من أفواههم ، وذلك لأن الجماهير لا عقل لها ، ولو عقلت لصرخت في وجوههم بسؤال واحد يخرسهم وهو ( هل أنتم مسيرون أم مسايرون ؟ ما قيمتكم إذا تخليتم عما أوجب الله عليكم من تسيير البشرية ، وتقويمها إلى مسايرتها وتقليدها؟ ). ولكن ـ مع الأسف ـ لقوة مكر هؤلاء ، وجهل أولئك ينشأ جيل تعتاد آذانه سماع ذلك ، وهو خال من حصانة العقيدة وقوة البصيرة ، فيتوهم أنها مشاكل يجب حلها على ضوء الواقع ، أو يلتمس لها أنصاف الحلول لإفلاسه من العقيدة ، ومن فهم وحي الله ، فيكون أكثر الشباب ضحية لهذه الأباطيل خصوصاً وقد تفاقم شر المبطلين المغرضين ، فانتقلوا من دور الكلام إلى دور العمل والسيطرة لنجاحهم

في التسرب إلى كثير من المراكز والمؤسسات تمكنوا بواسطتها من ترويج غشهم وبث سمومهم وتنفيذ مقاصدهم بصمت لا يثور أمامه معارضه ، وبعضهم يحظى باحتضان بعض المسؤولين فيحتمي به ، وذلك لأن ركائز الماسونية الخفية من ورائهم تشد أزرهم ، وتهيئهم لنيل الشهادات العالية ، وتبث لهم الدعاية وتحميهم من خصومهم المسلمين ، بل تمنع مهاجمتهم في كبار الصحف المنتشرة لِتَنَفُّذِها في وسائل النشر التي تسمح للمفسدين بنشر ما يريدون ، وتجعل أصوات المسلمين خافتة ، ومقالاتهم لا تنشر إلا في صحف قليلة الانتشار يرفضها أكثر الناس .

فهذه العصابة ـ التي نبهنا الله إلى شدة خطرها ـ قليلة العدد ، ولكنها كثيرة خطيرة بتماسكها وقوة مكرها وكثرة دعايتها وضجيجها ، وتركيز القوى الخفية لها ، وكسبها لمن يحميها بسبب ركائز الماسونية ـ فينبغي للمسلمين أن يحسبوا لها ألف حساب ويجندوا جميع أنواع الحرب الفكرية لمقاومتها ، والوقوف لصد انتشارها بأقوى الأساليب التي تستعملها ، واستعمال الفيلة الدموية بمختلف الوسائل لقتل طواغيتها وركائزها ـ كما أرشد النبي ﷺ أمته إلى ذلك بقوله : ( من لي بابن الحقيق ، من لي بفلان فإنه قد آذى الله ورسوله ) ، وأن لا تخرسهم العواطف ووشائج القربى عن مقاومتهم فيندمون حيث لا ينفع الندم . نعم . يجب على المسلمين أن لا تخرسهم العواطف ووشائج القربى عن مقاومة

هؤلاء الهدامين ، فقد كسبوا أبناء المسلمين ، بل أبناء بعض أشرافهم وعلمائهم ، لأنهم يستخدمون نصوص الدين لأغراضهم.

وأذكر - على سبيل المثال - ( نصرانياً محنكاً ) رئيساً لحزب مادي قومي مشهور ، أخذ يلقي محاضرات في مدح الدين ورسالة السماء - على سبيل الإيهام - وألف رسالة في مولد الرسول ﷺ قد يعجز العالم المسلم عن سبكها ، وأكثر محاضراته من التشجيع على التزام الدين والأخذ برسالة السماء - التي أظهر معناها المنحرف فيما بعد - كما أخذ يهاجم الشيوعية ويدعو إلى بعث عربي ليصطاد في الماء العكر ، وقد كسب أولاد علماء وشخصيات كبيرة ، وبرز من يشيد بذكره في صحف محسوبة على الإسلام في قلب بلاد المسلمين ، وله تعاليم خفية لا يفضي بها إلا لمن يجزم أنه منخرط في سلكه نهائياً لأن توزيعه لقيحه وصديده كان على مراحل ، فلما تولى أنصاره أخذوا - تحت تعاليمه - يسعون بجميع أنواع الفساد والإهلاك الحسي والمعنوي ، الذي أخبرنا الله في هذه الآية ، وقد فعل رفاقه الأفاعيل التي يندى لها الجبين في نواح عديدة من بلاد المسلمين ، ذاق المسلمون فيها أعظم مما ذاقه إخوانهم من الشيوعية.

اجعل - أيها المسلم - هذه الآية دائماً نصب عينيك وفي مخيلتك ، حتى لا يكون عقلك فريسة للمصادرة ، ودقق النظر في قوله تعالى : ﴿ يعجبك قوله في الحياة الدنيا ﴾ لتعلم أنه يغزوك بما يروقك ، ويدخل مسامعك من الكلام

المزخرف العجيب ، والكلام الذي يناسبك فإن هذا الصنف من الناس يتكلم مع بعض الأفراد بالأنظمة الغربية والدساتير الديموقراطية لمعرفته بميوله إليها ، ويتكلم مع بعض الناس بأحكام الشريعة ونصوص القرآن لاعتقاده أن هذا ينخدع بالحديث عن هذا الجانب ، وهكذا يحاول إقناع كل فريق بما يعجبه من الكلام ويجعل الله واسطة على صدق ما يقول ، وهكذا أجرى الله سنته أن كل فريق من المبطلين المغرضين ( يحلفون إن أردنا إلا الحسنى والله يشهد انهم لكاذبون ) .

إن أهل القرآن ـ لو تدبروه حق التدبر ، وانطبعوا بمعانيه غاية الانطباع ، لما راج عليهم شيء من دجل هؤلاء ، ولهذا قال تعالى : ﴿ أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ﴾ . وكم رأينا أصنافاً من الناس قاموا بأنواع الفتنة والضلال ، صرفوا بها قلوب الناس إلى ما يريدون ودخل حبهم في القلوب واستحسن الناس ما يصدر منهم ، ولو كان مخالفاً للدين أو ردةً عنه ، ثم بعد مدة من الزمان انكشف أمرهم ، فانصرف عنهم بعض الناس وشتموهم ، وبقي بعض الناس على غروره بهم ، ولو تدبروا وحي الله ، لما انخدعوا بدعاياتهم ولما انجرفوا في محبتهم المخالفة لأصل التوحيد .

وقد شوهد معنى قوله تعالى : ﴿ ويهلك الحرث والنسل ﴾ **من الإهلاك الحسي** ، بالضرائب وسن الأنظمة المخالفة لواقع البلاد ومصالحها ، مما يختل به المجهود الزراعي ، ويضعف الإنتاج وتكون البلاد المصدر للمحاصيل الزراعية العظيمة ،

مستوردة لما تأكله من غيرها ـ كما حصل هذا في عدة بلاد انخداع أهلها بمن أعجبهم كلامهم فخانوهم في أفعالهم ، **ومن الإهلاك المعنوي** الذي تفسد فيه الأخلاق والمقاصد حتى لا يثق الأخ بأخيه لاختلاف الأهداف ، ودقة التجسس وسوء التربية بما يزيدونه على رجس المستعمرين من سوء البرامج وكثرة المراقص والبلاجات العارية والأفلام الخليعة ونحوها من أنواع الفساد .

وقوله تعالى : ﴿ والله لا يحب الفساد﴾ يقتضي أن الله يبغض الفساد والمفسدين ، فختام الله لهذه الآيات مناسب لمدلولها ، وذلك أنه لما كان هذا الماكر المغرض يسعى بغش الناس غشاً فكرياً بمطالبته بالإصلاح ، وتزعمه لهذه الدعوى ويجعل الله شهيداً بينه وبين السامعين ، حتى لا يشك أحد في حقيقة أمره ـ والله سبحانه يعلم منه خلاف ذلك ، ويحذر المؤمنين منه ويفضح لهم سريرته مفصحاً لهم عن حقيقة حاله أنه إذا حصل له ما يتمناه من تولي الأمر ، سعى في الأرض فساداً ، وفي هذه الآيات دليل على أن ظواهر الأقوال ، مهما زُخرفت وأعجبت السامعين لا تكون محمودة إلا إذا صدقتها الأفعال فكانت مطابقة للأقوال في الحسن والصلاح والإخلاص .

وبعض العلماء أخذ من هذه الآية دليلاً على كذب من حلف بالله واستشهد به بدون سبب يلجئه إلى ذلك ، وفي تراجم بعض كتب السنة :

( باب من حلف قبل أن يستحلف فهو دليل على كذبه ) .

ولما كان هذا الصنف من الناس على نوعين :

نوع ساذج تصدر مخالفته لقوله عن جهل ، أو تقليد ، أو خوف ، أو مصانعة ... وهذا النوع بسيط ، قد يسرع بالتوبة . وقد يحول بينه وبينها ضغوط داخلية أو خارجية ، لكن يرجى منه قبول النصيحة والرجوع عن الأعمال الباطلة .

لكن النوع الثاني الخطير الذي ركز الله عليه الكلام والتحذير لسوء طويته وتصميمه على الشر ، وذلك بأنه ﴿ إذا قيل له : اتق الله ، أخذته العزة بالإثم ، فحسبه جهنم ولبئس المهاد﴾ يعني إذا نصحه الناصح ووعظه بتقوى الله الذي أشهده على نفسه ليرتدع عن منكره وفساده الذي سعى به ، يسرع إليه الغضب ويعظم عليه الأمر ويأخذه الكبر والأنفة عن قبول النصح والإصغاء إليه ، إذ عزة المنصب الذي حصل عليه ألبسته الكبر الذي يجعله ملازماً للإثم ، مستهتراً بنصح الناصح ، لأنه بإصراره على فعل الفساد مستهزئ بربه ، لأن العزة التي حصل عليها قد لابسته مع الكفر ، لأنه في الأصل سيئ المقصد يغش الناس بالقول الذي يروقهم ويخدعهم وهو مضمر في قلبه نكايتهم ، فعزته التي ألبسته الإثم ناشئة مما في قلبه من الكفر وسوء الطوية ولهذا قال : ( فحسبه جهنم ) يعني : جزاؤه الذي يكفيه .

( ولبئس المهاد ) أي : لبئس الفراش والمستقر كما قال تعالى : ﴿ فلأنفسهم يمهدون﴾ أي يفرشون ويمكنون.

وكقوله تعالى : ﴿جهنم يصلونها فبئس القرار﴾ .

وهذه الآيات القصيرة فيها من الإرشادات العظيمة ما لا حصر له في أمور الدين والدنيا ولو تدبرها المسلمون وعقلوها ، وساروا على ضوئها سيراً صحيحاً في معاملة المغرضين واختبارهم ، لما انطلت عليهم الأوهام والأراجيف، ولما صار للدجاجلة ومحترفي السياسة بينهم مجال ، ولكن لبعدهم عن القرآن بمعانيه ومراميه صاروا كالأطفال ، فنسوا حظاً مما ذكرهم الله في القرآن ، وإنهم – من المشرق إلى المغرب – لم تفدهم التجارب خبرة ، ولم يعتبر بعضهم بما جرى لبعضهم الآخر ، بل ابتليت منهم أمم وشعوب بمن وصفهم الله في هذه الآيات الكريمات ...

اغتروا بمن صنعتهم الثقافة الاستعمارية الماسونية ، وطبعتهم بطابع قومي أو وطني بعيد عن الدين ، يصرخ أحدهم بعداوة الاستعمار ، ويتزعم الإصلاح ، ويكيل وعود الخير لأمته ، ويحثوها حثواً بلا كيل ولا ميزان ، فيملك شغاف قلوبهم ، فيقاتلوا من أجل مبدئه المزعوم ، وتسيل أموالهم بل أموال غيرهم من المسلمين بالتبرعات حتى إذا تولى سعي في الأرض كما وصفه الله يبطش بمن يريد باسم حماية الوطن أو الثورة ، أو يصفه بالخيانة والعمالة مع أنه يطلب حكم الدين لا يعرف العمالة ولا يسلك مسلكها وكم ابتلى المسلمون في بلادهم – ويبتلون – بمن يستورد أنظمة مخالفة للفطرة ، ومعاكسة لصالح البلاد ،

حتى تذهب خيراتها التي كانت قبله تصدر إلى أنحاء الدنيا ، وتكون بلاده عالةً على غيرها بالاستيراد هذا في الجانب السياسي والاقتصادي ، أما الجانب الثقافي والاجتماعي والأخلاقي فإنه يزيد شراً على شر ، لأنه يأبى تكييف الثقافة بوحي الله ، الشافي للقلوب ، المصلح للجوارح ، ويأبى تطهير البلاد من أرجاس الاستعمار ومراقصه وخموره ، بل يزيدها ، ويأبى تبديل القوانين ( الديوثية ) ـ المرخصة للأعراض ـ بإقامة حدود الله الحامية لها ، ويأبى تبديل القيادات الفكرية المسممة للعقول والمفسدة للأخلاق في ميدان الصحافة والنشر ، بل يشجعها على مهاجمة الدين بما لا تقدر عليه وقت الاستعمار ...

هذا كل شيءٔ مشاهد ملموس ، وواقع محسوس ، مما أخبرنا الله به في هذه الآيات ، ومع هذا ، تقام الأعياد الوطنية ويصرف فيها من الأموال للزينة ، ومكافئة المداحين الكذابين لهؤلاء ، وتعطل الأعمال في سبيل التضليل والبهرجة ، هذا عيد النهضة ، وهذا عيد الجلاء ، وهذا عيد النصر ، وهذا عيد الاستقلال إلى غيرها مما يحصل به إحاطة الأشخاص بهالة التعظيم ...

فمتى يعود المسلمون إلى إرشاد الله لهم ، وتحذيرهم من الإصغاء إلى من يحسن كلامه ويسوء فعله ؟

# المنافقون يتآمرون مع اليهود

وقوله سبحانه في الآية - ٧٢ - من السورة :

﴿ وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أُنزل على الذين آمنوا وَجْهَ النهارِ واكفروا آخره لَعلَّهم يَرْجِعونَ ﴾.

لم يكتف اليهود بتصميمهم على الكفر بما يعلمون صدقه وحقيقته ، ولا بما يقومون به من تلبيس الحق بالباطل ، ولا بما يكتمونه مما يؤيد صدق محمد عليه الصلاة والسلام ، ولا بما ينكرونه من ذكر شخصيته محمد وأوصافه ، والبشارة به زاعمين أنه ليس هو الموصوف المبشّر به ، وانما غيره ولم يأت زمانه بعد .

لم يكتف اليهود بكل هذا المكر المتنوع حتى لجأوا لزعزة عقيدة المسلمين ، واللعب بعقولهم ، وتشكيكهم فيما هم عليه من الهداية كما أخبرنا الله سبحانه في هذه الآية .

وإنها لطريقة خبيثة لئيمة خطيرة في إفساد القلوب ، وبلبلة الخواطر ، وترويج النفاق ، وإشاعة الإرجاف ، حيث جندوا جماعة منهم من ذوي المرزنة والحذق في المكر والحيلة يظهرون إسلامهم أول النهار فيجذبوا المسلمين

ويتمكنوا من قلوبهم . ويصولوا ويجولوا معهم . ويودعوا في قلوبهم أنهم مسلمون مثلهم ـ غايتهم طلب الحق والرغبة فيه . فيبحثون في بعض شرائع الاسلام قاصدين التشكيك فيها . فإذا حصل لهم هذا أظهروا الكفر عسى أن يلحق بهم بعض المؤمنين ضعاف الإيمان .

ووجه الخطورة في هذه الحيلة أن العرب أمة أمية كانت تعتقد أن أهل الكتاب أعرف منهم بما يتعلق بأمر العقيدة والألوهية . فإذا ارتد أهل الكتاب بعد إيمانهم ومخالطتهم للمسلمين ، والنقاش معهم ، حسب ضعفاء الإيمان من المسلمين أن هؤلاء لم يكفروا بما آمنوا إلا لشعورهم بأن ما آمنوا به ناقص ومغاير لما في دينهم الأول .

فإما أن يكفر الضعفاء من المؤمنين بعد ذلك أو تخالجهم الشكوك فتجعلهم يتأرجحون بين الطرفين فيشكلوا طائفة المنافقين . ومكر اليهود هذا مبني على قاعدة ثابتة في العقل البشري وهي :

ان من علامة الحق أن لا يرجع عنه من عرفه ، ولهذا نجد ( هرقل ملك الروم ) قد أخذ بهذه القاعدة ، عندما سأل ( أبا سفيان ) هل يرجع عنه من دخل في دينه ؟ فقال لا .

وهذه الطائفة اليهودية الموغلة في الغش قررت العمل بهذه القاعدة ليغشوا المسلمين ، فيقولوا لولا أنه ظهر لهؤلاء بطلان ما نحن عليه لما رجعوا عنه بعد أن دخلوا فيه وعرفوه ،

إذ لا يمكن في المعقول أن يترك الانسان الحق بعد معرفته بلا سبب .

ولعل الأمر النبوي بقتل المرتد عن الاسلام كان لزجر هؤلاء وتخويفهم حتى يرتدعوا عن تدبير المكائد لإرجاع الناس إلى الكفر بعد دخولهم في الاسلام وذلك بما يبثونه من التشكيك في فترة إسلامهم المؤقت ، وبما تحدثه ردّتهم المصطنعة من بلبلة في الصف ، وزعزعة في العقيدة .

فإن قيل : ان بعض الناس ارتد عن الاسلام بدون تأثرهم بهذه الحيلة فماذا يقال فيهم ؟.

فالجواب ـ إن دخول هؤلاء في الاسلام ليس عن رغبة صادقة وإنما دخلوه دخولاً انتهازياً لطلب منفعة أو رفع مضرة وهؤلاء غير الصنف السابق يصدق فيهم قوله تعالى في الآية ـ ١١ ـ من سورة الحج .

﴿ ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن اصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين ﴾ .

فينبغي التفريق بين من أسلم عن رغبة فلا يرجع عن اسلامه إلا بمؤثرات عقائدية من مثل مكر اليهود وأشياعهم ، وبين ما أدخلته الانتهازية الاسلام .

فإن الانتهازية ـ والعياذ بالله ـ تحمل مواليد الاسلام ـ ذوي الاسلام الأصيل كابراً عن كابر ـ على الردة عنه

طمعاً في منصب أو مال أو شهوة ، كما هو مشاهد محسوس .

فالانتهازية حملت بعض العلماء المتبحرين على أن يسترخصوا أنفسهم ، ويبيعوا علمهم على دجاجلة السياسة حتى جعلوهم نجوة يستجمرون بها .

وقوله سبحانه في الآية ١١٨ ، ١١٩ من السورة :

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالاً ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر قد بينا لكم الآيات ان كنتم تعقلون(١١٨) ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم وتؤمنون بالكتاب كله وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ قل موتوا بغيظكم ان الله عليم بذات الصدور (١١٩).

فقوله سبحانه ﴿ لا تتخذوا بطانة ﴾ نكرة في سياق النفي تفيد عموم النهي عن كل بطانة كافرة .

والبطانة ـ هم خاصة الانسان وأصدقاؤه الذين اختارهم ليفضي لهم بأسراره وأخباره .

وأصل البطانة ـ الثوب الداخلي الملاصق لجلد الانسان وبطنه فاستعير هذا المعنى لكل صديق يطّلع على سريرة الآخر .

﴿ من دونكم ﴾ أي من غير جنسكم في الدين ، وبمعنى آخر أي من غير ملتكم ، والجملة هذه إما أن تكون متعلقة بقوله ﴿ لا تتخذوا ﴾ أي لا تتخذوا من دونكم بطانة ﴾ ، وإما أن تكون متعلقة ببطانة فتكون وصفاً لها والتقدير

ـ بطانة كائنة من دونكم ـ

فإن قيل ـ هذه الآية تقتضي المنع من مصادقة الكفار على الاطلاق في حين أن هناك آيات أخرى تخالف هذا المفهوم مثل قوله تعالى : ﴿ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلونكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم ان تبروهم وتقسطوا إليهم ﴾ إلى قوله تعالى :

﴿ انما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين ... ﴾ الآية.

قلنا هذا شغب يقوم به بعض الملاحدة الجهلة الذين يلحدون في آيات الله . فلو قرأوا الآيات السبع السابقة لهذه الآية من سورة الممتحنة لوجدوا أنها صريحة في النهي القاطع عن موالاة الكفار ، والأدلاء إليهم بالمودة ، وفيها الأمر بالبراءة منهم ، وإعلان بغضهم وعداوتهم اقتداء بابراهيم ـ عليه السلام ـ واتباعاً لملته .

وليس في هذه الآية ما يدل على جواز موالاة الكفار ، ولا مودتهم ، ولا مصادقتهم ، وإنما فيها رخصة بمبرتهم والعدل فيهم ما داموا لم يقاتلوننا في الدين ، ولم يظاهروا علينا أحداً من أعدائنا ، وقد جاء في أسباب نزول هذه الآية انها نزلت في احدى والدات المؤمنات وأقاربهن الذين ما زالوا على الكفر ، كما هو مذكور في موضعه .

وكذلك آيات ـ آل عمران ـ هذه تضمنت النهي القاطع الصريح المدعّم بالعلل الواقعية عن اتخاذ الغريب عن الملة

بطانة لمن يقوم بأمر الملة . وإن كانت له صلة نسبية . فإن مخالفته في الدين تجعله غريباً ، والغريب عن الدولة لا يجوز اتخاذه بطانة لرجال الدولة .

واعلم ان الله سبحانه لما منع المؤمنين من اتخاذ الكافرين بطانة لهم علل هذا النهي بمجموعة علل وهي :

١ ـ قوله ﴿ لا يألونكم خبالاً ﴾ يعني لا يقصرون في إيذائكم وإنزال الضرر بكم ـ يقال ـ ألا ـ في الأمر ـ يألو ـ إذا قصرَّ فيه ثم استعمل مُعدّى إلى مفعولين كقولهم : لا آلوك نصحاً ، ولا آلوكَ جهداً ـ أي لا أمنعك نصحاً ولا أقصر في نصحك ولا أنقصك جهداً ، ومنه قوله تعالى « ولا يأتل ألو الفضل منكم » .

والخبال ـ هو الفساد الذي يؤثر في اختلال المخ ، والمقصود تأثيرهم على العقول بإفساد تصوراتها بما يقذفونه من الغش والتلبيس ـ كما جرى للمستعصم آخر خلفاء العباسيين حين استوزر ( ابن العلقي ) الرافضي ركيزة التتار ، خدعه وصار فريسة لهم ، فكانت نكبة على المسلمين .

ومجمل القول أن هذه البطانة لا تدع جهداً ، ولا تدخر وسعاً في مضرتكم . وفساد أمركم ، وإيقاع شتى أنواع الضرر بكم والذي يساعدهم على ذلك استبطانكم إياهم ، واحتضانكم لهم فتمكنوا من الاطلاع على أسراركم ومخططاتكم ، فيخبرون أعداءكم بذلك لأن صلتهم العقائدية بهم أقوى من صلتهم بكم ، فشأن العقيدة شأن

كبير . ولهذا قال سبحانه « لا تتخذوا بطانة من دونكم » .

٢ ـ قوله سبحانه ﴿ ودّوا ما عنتم ﴾ يعني يحبون إعناتكم ، والعنت هو شدة الضرر والمشقة كما قال تعالى : ﴿ ولو شاء الله لأعنتكم ﴾ . وتقدير الآية ـ أحبوا أن يضروكم في دينكم ودنياكم أشد الضرر ، ـ و ـ ما ـ مصدرية كقوله تعالى : ﴿ والسماء وما بناها . والأرض وما طحاها ﴾ وبربط قوله سبحانه ﴿ لا يألونكم خبالاً ﴾ بقوله ﴿ ودوا ما عنتم ﴾ يصير المعنى ـ انهم لا يقصرون في إفساد أموركم وتصوراتكم وإيقاع الضرر بكم ، بإن لم يحصل لهم ذلك ذلك لمانع خارجي ، فحب ذلك مستقر في نفوسهم ، ومتمكن من قلوبهم .

٣ ـ قوله سبحانه ﴿ قد بدت البغضاء من أفواههم ﴾ .

والبغضاء ـ شدة البغض ومثله الضر والضراء بعد أن ساقت الآية فعل هؤلاء القلبي ﴿ ودوا ما عنتم ﴾ . ساقت فعلهم البدني « قد بدت البغضاء من أفواههم » فهم لشدة كرههم وحقدهم وبغضهم للمؤمنين لا بد أن يظهر هذا على ألسنتهم وفي ثنايا أحاديثهم مهما حاولوا كبته وضبطه .

٤ ـ قوله سبحانه ﴿ وما تخفي صدورهم أكبر ﴾ .

أي أنه مهما ظهر من أعداء الاسلام من حقد وكره للمسلمين فإنه لا يساوي شيئاً بجانب ما أخفته صدورهم ، فما يخفونه من البغضاء أكبر بكثير مما يظهرونه .

فهم جادون في اضرار المسلمين بكل وسيلة ، يبيتون لهم الشر ، ويضمرون لهم السوء لشدة ما في قلوبهم من الغيظ .

ولا يزال بعض المسلمين مخدوعاً بهم يفضون إليهم بالمودة ، ويجعلونهم موضع ثقتهم ، ويتخذونهم بطانة وأصدقاء ، يأمنونهم على أسرار المسلمين ، وهم يرونهم رأي العين انهم من عملاء الكفر ، فيغترّون بهم لأنهم يحسنون صنعة النفاق وضروبه ، حتى أنسوهم تحذير الله منهم ، ونهيه عن مصادقتهم والركون إليهم ، وقد ختمت الآية بقوله تعالى : ﴿ قد بينا لكم الآيات ان كنتم تعقلون ﴾ أي ان كنتم تعقلون العقل الذي يميز به صاحبه بين الضار والنافع ويفرق به بين الولي والعدو .

وقال ابن جرير ـ معناه إن كنتم تعقلون عن الله أمره ونهيه ـ وقيل ـ إن كنتم تعقلون فلا تصافوهم بل عاملوهم معاملة الأعداء إن كنتم تعقلون الفرق بين معاملة الأعداء ومعاملة الأصدقاء في الدين وليس في قوله تعالى : ﴿ إن كنتم تعقلون﴾ غمز لهم بعدم العقل ونقصه ـ حاشا وكلا ـ.

وانما علق حصول الفائدة من هذا النهي على شرط العقل ، ليحرك نفوسهم ويحمسها ويشجعها على العمل بمقتضى الآية . لقول القائل لمن يشجعه ويدفعه على العمل : ـ إن كنت رجلاً فافعل كذا .

وهذه الآيات التي مرت بنا تدل على وجوب الاخلاص

في الدين وحماية العقيدة من موالاة الكفّار، والتقرب منهم ، والالتقاء معهم في أي ميدان من ميادين الحياة ، وقد قال الله تعالى : ﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض﴾ .

﴿ والذين كفروا بعضهم أولياء بعض إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير ﴾ .

٥ ـ قوله تعالى﴿ ها أنتم تحبونهم ولا يحبونكم﴾ .

ولفظ ـ ها ـ للتنبيه ، وأنتم ـ مبتدأ ، وجملة تحبونهم ـ خبر و ـ أولاء ـ منادى منصوب على الاختصاص ، والاصح قول البصريين انها في محل النصب على الحال ، أي ( ها أنت ذا قائلاً ) . والحال هنا لازمة .

والمعنى ـ ها أنتم أولاء الخاطئون في موالاة غير المؤمنين إذ تحبونهم ولا يحبونكم .

والمحبة هنا ـ هي الميل بالطبع لوضع القرابة أو الرضاع أو الحلف كما قال ابن عباس ، أو لأجل إظهار الإيمان والإحسان للمؤمنين كما قاله أبو العاليه .

وإذا كان المنع من محبة الكفار والمنافقين رغم وجود هذه العلائق فكيف بمن ويستبطنهم من دونها فلا تربطه بهم إلا ما يسمى برابطة القومية أو الوطنية ، أو الانتماء لمذهب مادي ، أو نحو ذلك . فإن هذا مخرج صاحبه عن الاسلام لأن المحبة يجب أن ترتبط بحب الله ورسوله ،

وأن تكون متبادلة على أساس من التقوى والإيمان .

٦ ــ قوله تعالى ﴿ وتؤمنون بالكتاب كله ﴾ .

في الآية اضمار تقديره ﴿ وتؤمنون بالكتاب كله وهم لا يؤمنون ﴾ ويحسن الحذف هنا لأن الضدين يعلمان معاً ــ فكان ذكر أحدهما مغنياً عن ذكر الآخر .

وقد أفرد الله سبحانه ذكر الكتاب هنا لأنه ذهب به مذهب الجنس كقولهم ــ كثر الدرهم بأيدي الناس ــ ولأن المصدر لا يجمع إلا على التأويل .

والمعنى أنكم تؤمنون بجميع ما أنزل الله من كتاب حتى الكتاب المنزل إليهم ، وهم مع ذلك يبغضونكم ولا يؤمنون بشيء من كتابكم وفي هذا توبيخ للمؤمنين المتورطين بهذه الخصلة لكون الكفار اصلب منهم في عقيدتهم ، فلم يقابلوا مودة المؤمنين إلا بالبغض ولا تقربهم إلا بالنفرة ، ولا إيمانهم بكتبهم إلا بكفرهم بالقرآن فكيف يكون أهل الباطل اصلب في باطلهم من أهل الحق في حقهم ؟ وكيف يكسب أهل الباطل محبة أهل الحق بدون مقابل ؟ .

٧ ــ قوله تعالى ﴿ وإذا لقوكم قالوا آمنا واذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ ﴾ .

أي أنهم إذا لقوا المؤمنين أظهروا إيمانهم مكراً بالمسلمين

وخديعة ليكسبوا مودتهم ويحصلوا على شيء من أخبارهم ، وخططهم .

وهم في حقيقة الأمر يبطنون الكفر ويصرون عليه ، ويكرهون الاسلام وأهله ، ويخططون سراً وعلانية للقضاء على المسلمين وإبادتهم ، يدفعهم إلى ذلك الغيظ الذي لا حدود له ، حتى أنهم من فرط غيظهم يعضون أناملهم حيث لا يستطيعون إيقاع الأذى بالمسلمين .

وعض الأنامل يفعله المغضَب الذي فاته ما لا يقدر عليه ، أو نزل به ما لايقدر على دفعه أو تغييره .

والعض هذا يكون بالاسنان كعض اليد على فائت قريب الفوات وكقرع السن النادمة إلى غير ذلك .

والأنامل جمع أُنمله ، وهي أطراف الأصابع .

وعضهم للأنامل كما قدمنا هو من شدة الغيظ مع عدم القدرة على انفاذ ما يريدون .

وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ قل موتوا بغيظكم ﴾ .

هو أمر من الله لنبيه محمد ـ ﷺ ـ ولكل مؤمن أن يدعو عليهم بهذا الدعاء ـ أي الدعاء عليهم أن يزداد غيظهم حتى يهلكهم ، وذلك بازدياد موجبات الغيظ ـ من قوة الإسلام ، وعزة أهله ، فإن هذا يذلهم ويخزيهم حتى يموتوا كمداً وغيظاً .

وليس المقصود أمرهم بالبقاء على الغيظ الذي منشؤه

الاستدامة على الكفر لأن الأمر بالاقامة على الكفر غير جائز .

قال في البحر : قال بعض شيوخنا عن قوله تعالى : ﴿ موتوا بغيظكم ﴾ هذا ليس بأمر جازم ، لأنه لو كان كذلك لماتوا من فورهم كما جاء في قوله تعالى : ﴿ وقال لهم الله موتوا ﴾ .

وليس بدعاء لأنه لو أمره بالدعاء عليهم لماتوا جميعهم على هذه الصفة فإن دعوته - ﷺ - لا ترد ، وقد آمن منهم بعد هذه الآية كثير وليس خبراً ، لأنه لو كان خبراً لوقع على حكم ما أخبر به ، ولم يؤمن احد منهم بعد ذلك ، ولكنه قد آمن .

وإنما هو أمر معناه التوبيخ والتقريع كقوله : « اعملوا ما شئتم » ( وإذا لم تستح فاصنع ما شئت ) اهـ .

وقيل يجوز أن يكون أمراً يُطيِّب نفوس المؤمنين ، ويقوي رجاءهم ويحصل لهم به الاستبشار بوعد الله أن يهلك أعداءهم غيظاً باعزاز الاسلام وإذلالهم به .

٨ - قوله سبحانه في الآية - ١٢٠ من السورة .

﴿ إن تمسسكم حسنة تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها ، وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً أن الله بما يعملون محيط ﴾ .

وصف لأعداء الله وأعداء المؤمنين من الكافرين

والمنافقين ، أنهم يستاؤون إذا أصاب المسلمين خير وإن كان هذا الخير يسيراً لا يزيد على ما يُمسُّ باليد ، فالتعبير عن الحسنة بالمس لأجل الاشعار بالقلة .

والمراد بالحسنة كل ما فيه منفعة دنيويه ـ كصحة الأبدان ، وحصول خصب ، وانتصار على أعداء ، وفوز بغنيمة ، وحصول مودة وألفة بين المؤمنين .

كما أنهم يفرحون بنزول السيئة بالمؤمنين مهما كان نوعها ، كالمرض ، والفقر ، والهزيمة ، وحصول التباغض والتدابر بين المؤمنين .

قال ابن عطية : ذكر الله المسَّ في الحسنة ليبين أن المساءة تقع بنفوس هؤلاء المبغضين بأدنى طروء الحسنة ، ثم عادل ذلك في السيئة بلفظ الإصابة ، وهي تفيد التمكن لأن الشيء المصيب لشيء أخر متمكن منه أو فيه ، فدلّ هذا النوع البليغ على شدة العداوة إذ هو حقد لا يذهب عند نزول الشدائد والفرحة بها . اهـ .

وقوله سبحانه ﴿ وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً ﴾ الكيد ـ هو احتيال الانسان ليوقع غيره في مكروه . والصبر ـ هو حبس النفس على المكروه ، وتحمل الأذى ، وانتظار الفرج والتقوى ـ هي اتخاذ الوقاية من عذاب الله بالتزام أوامره وتنفيذها برضى وإخلاص ، واجتناب نواهيه وحفظ حدوده .

وقد حذف الله متعلق الصبر ومتعلق التقوى من الآية ليفهم من ذلك عموم معاني الصبر والتقوى وأنواعهما .

وفي هذا بشارة للمؤمنين ، وتثبيت لأنفسهم ، وإرشاد لهم إلى الوقاية من أذى المشركين وكيدهم ، بالصبر والتقوى فإن من وفّى بعهد العبودية لله ، فالله أكرم بالوفاء له بما وعده من الحفظ والرعاية « ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب .

هذا وقد ذكر الله هذه العلل العظيمة للنهي عن موالاة الكافرين واستبطانهم والثقة بهم موضحاً انهم لا يصلحون لشيء من ذلك ( ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون ) ؟

وقد قال الشاعر :

كل العداوات قد ترجى إزالتهـــا

إلا عداوة من عاداك فـــي ديـــن

وعن عمر ـ رضي الله عنه ـ انه قال : لا تستعملوا أهل الكتاب فانهم يستحلون الرُّشا ، واستعينوا على أموركم وعلى رعيتكم بالذين يخشون الله ـ وقيل له : إن ههنا نصرانياً من أهل الحيرة ، لا أحد أكتب منه ، ولا أخطّ بقلم ، أفلا يكتب عنك ؟ فقال لا أتخذ بطانة من دون المؤمنين .

وروي أن أبا موسى الأشعري استكتب ذمياً فكتب إليه

عمر يُعنّفه ، وتلا عليه هذه الآية ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم ... ﴾ الآية ، وانتهره لما حضر وقال : لا تدنهم وقد أقصاهم الله ، ولا تكرمهم وقد أهانهم الله ، ولا تأمنهم وقد خوَّنهم الله .

قال القرطبي ، وقد انقلبت الأحوال في هذه الأزمان باتخاذ أهل الكتاب كَتَبَة وأمناء ، وتسودوا بذلك عند الجهلة الأغبياء من الولاة والأمراء . روى البخاري عن أبي سعيد الخدري ، عن النبي ـ ﷺ ـ أنه قال : ( ما بعث الله من نبي ولا استخلف من خليفة إلا كانت له بطانتان ، بطانة تأمره بالمعروف وتحضه عليه ، وبطانة تأمره بالشر وتحضه عليه ، فالمعصوم من عصم الله تعالى ) .

وروى أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ ـ « لا تستضيئوا بنار المشركين ولا تنقشوا في خواتيمكم غريباً ». ـ فسره الحسن بن أبي الحسن : قال أراد عليه الصلاة والسلام ـ لا تستشيروا المشركين في شيء من أموركم ولا تنقشوا في خواتيمكم محمداً . قال الحسن : وتصديق ذلك في كتاب الله ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالاً » . ( قلت ) وتفسير ابن ابي الحسن لنقش الخواتيم في النفس منه شيء ولعله يرى ما لم أره والله أعلم .

وقوله « والله بما يعملون محيط » وقرأ ( تعملون ) بالتاء الفوقية وعلى القراءة الأولى يكون المراد أهل الكتاب

والمنافقون الذين اتخذهم المؤمنون بطانة وكذا غيرهم .
فإن علم الله محيط بما يعملون من معاداتكم والكيد لكم .
ومقتضى علمه بذلك أن يجازيهم عليها في الدنيا والآخرة .

أما على قراءة ( تعملون ) على سبيل المخاطبة ـ فيكون الخطاب موجه للمؤمنين ، والمعنى ـ انه محيط علمه بجميع ما يصدر منكم أيها المؤمنون ومن خصومكم الكفار ، ومجازيكم على مخالفة ارشاده وتحذيره لكم من اتخاذهم أولياء أو بطانة . كما أنه سيجازيهم على كيدهم ومكرهم .
وتجدر الإشارة هنا إلى أن ـ الإحاطة في جميع آي القرآن الكريم معناها إحاطة العلم والقدرة ، لا الاحاطة الحسية .

# آيـــات أخـــرى

## تسلط الضوء على المنافقين

لقد جمع الله سبحانه بين الكافرين والمنافقين في آية واحدة، فجعلهم شيئاً متشابهاً بل واحداً في عداوته للإسلام وتأليب قلوب المؤمنين عنه، ولهذا توعد الله المنافقين كما توعد الكافرين بالعذاب الأليم، وفتح أبواب جهنم لهم جميعاً ليذوقوا عذابه وغضبه بما جنت أيديهم وعقولهم فقال تعالى : ـــ ﴿ **إن الذين آمنوا ثـم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفرا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلا، بشر المنافقين بأن لهم عذاباً إليماً، الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعا، وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذاً مثلهم إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعاً** ﴾[1]

---

(١) النساء ١٣٧ ـــ ١٤٠

فهذا التقلب من الإيمان إلى الكفر ومنه إلى الإيمان ثم عودة إلى الكفر ليس من صفات المؤمنين، بل هو صفة من صفات المنافقين الذي ملأ الشك قلوبهم ونفوسهم فراحوا ينتهزون الفرصة الملائمة واضعين أنفسهم في الصف الذي يرعى مصالحهم — بزعمهم — وقد عميت بصيرتهم وضلت قلوبهم فتاهوا عن الصراط المستقيم صراط الذين أنعم الله عليهم ولا الضالين، ونسوا أن المصلحة الحقيقية هي بالثبات على طريق الحق، طريق الخير والفلاح، طريق الله الذي يؤمن الهداية والنجاة والسلامة، آثروا الحياة الدنيا ومصالحها، وانقلبوا عن الله والمؤمنين إلاّ في ساعات يرجون فيها منفعة ورفعة، فهؤلاء لن يجدوا رفعة ولن يجدوا هداية ولن يجدوا شفيعاً، إذ تحولت الآية الكريمة من وصفهم بالتردد والنفاق إلى وصفهم بالكفر المكابر المعاند الذي يصر على التردي بتلك الهوة السحيقة المملوءة ناراً حامية وألماً ساحقاً وعذاباً لا يدانيه عذاب (جزاءاً وفاقاً) إن المنافقين هؤلاء لن يكون لهم سبيل إلى قلوب المؤمنين المحصنة بالثبات والعامرة بالإيمان، ومحاولاتهم تلك لن تكون إلاّ وبالاً عليهم بصدودهم عن كتاب الله والاستهزاء به، هذا الصد وذاك الاستهزاء يغمسهم في إناء الكفر النجس ثم ينكبون منه في النار على وجوههم مع الكفار سواسية وعلى قدم واحدة، خالدين بقيودهم واغلالهم يشربون الحميم والغسلين.

— الكافر له جهنم وساءت مصيراً، ولكن المنافقين في الدرك الأسفل من النار، لأنهم اشتركوا مع أولئك بالكفر

وزادوهم خبثاً ومكراً ودهاء ودساً وإغواءً وإغلاقاً لكل طريق يؤدي إلى الخير والنجاح، فهم أبالسة تتلمذوا على الشر فأضمروه واتقنوه تجارة لن تربح ولن يجنوا منها إلاّ النكال والخسران. ﴿ **إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا** ﴾[1]، وكما أن الجنة درجات للمؤمنين المتقين كذلك النار هي الأخرى درجات، والمنافقون هم في الدرك الأسفل منها. فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : ــ (الدرك الأسفل) بيوت لها أبواب تطبق عليهم فتوقد من تحتهم ومن فوقهم، وعن ابن مسعود أنه قال : ــ المنافقون في توابيت من نار تطبق عليهم مغلقة مقفلة، ثم لا تجد لهم نصيراً ينقذهم مما هم فيه ويخرجهم من أليم العذاب.

﴿ **الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين فالله يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا** ﴾[2].

إذن فهم يتربصون بالمؤمنين دوائر السوء، وينتظرون زوال دولتهم وظهور الكفرة عليهم، فإن كان للمؤمنين نصر من الله وتأييد وظفر وغنيمة توددوا اليهم وقالوا : ــ ألم نكن معكم ؟ وإن كان للكافرين غلبة وإدالة ــ كما وقع يوم أحد، وكما يقع في كثير من مناطق العالم في وقتنا الحاضر ــ قالوا : ــ ألم نساعدكم في

---

(١) النساء ١٤٥.

(٢) النساء ١٤١.

الباطن ونخذل عدوكم ونثبط عزائمه حتى انتصرتم ؟! — **فهم** يتوددون إلى هؤلاء وهؤلاء ويصانعون هؤلاء وهؤلاء ليحظوا عند الجميع ويأمنوا كيدهم، وما ذاك إلاّ لضعف إيمانهم وقلة إيقانهم، ولكنهم مكشوفون في الآخرة عندما يحصل الله ما في الصدور ويكشف السرائر ويفضحهم أمام خلقه جميعاً، ومردودون في الدنيا عندما يحفظ الله عباده المؤمنين من كيدهم وغدرهم ودسهم ﴿ **ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً** ﴾ **فالله** سبحانه لن يجعل للكافرين على المؤمنين سبيلاً في الدنيا، بأن يسلطوا عليهم استيلاء استئصال بالكلية، وإن جعل لهم ظفر في بعض الأحيان على بعض الناس، فإن العاقبة للمتقين في الدنيا والآخرة كما قال تعالى ﴿ **إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا** ﴾، وعليه يكون هذا رداً على المنافقين فيما أملّوه ورجوه وانتظروه من زوال دولة المؤمنين، وفيما سلكوه من مصانعتهم الكافرين خوفاً على أنفسهم منهم — إذا هم ظهروا على المؤمنين فاستأصلوهم.

— قد يخدع المنافقون بعض من حولهم من بني البشر فيقودنهم إلى حفائر رسموها وخطّوها وموهوها ليوقعوا بهم — أقول : — إذا تمكن المنافقون من ذلك فهل يظنون أنهم يخدعون الله الخالق المسيّر المطلع العالم بما تبطن النفوس وما تظهر ؟! إن الله يصفعهم ويسوّد وجوههم ويخيب آمالهم عندما يقول : —

﴿ **إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله إلاّ قليلا. مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا** ﴾[1] لقد تقدم في سورة البقرة قوله تعالى ﴿ **يخادعون الله والذين آمنوا** ﴾ وهنا يقول : ﴿ **إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم** ﴾ مما لا شك فيه أن الله لا يخادع، فإنه العالم بالسرائر والضمائر، ولكن المنافقين لجهلهم وقلة علمهم وعقلهم يعتقدون أن أمرهم كما راج عند الناس وجرت عليهم أحكام الشريعة ظاهراً فكذلك يكون حكمهم عند الله يوم القيامة، وأن أمرهم يروج عنده، كما أخبر تعالى عنهم أنهم يوم القيامة يحلفون له أنهم كانوا على الإستقامة والسداد، ويعتقدون أن ذلك نافع لهم عنده كما قال تعالى : ﴿ **يوم يبعثهم الله جميعاً فيحلفون له كما يحلفون لكم** ﴾، فقوله : ﴿ **وهو خادعهم** ﴾ أي هو الذي يستدرجهم في طغيانهم وضلالهم ويخذلهم عن الحق والوصول إليه في الدنيا، وكذلك يوم القيامة، وقد ورد في الحديث : « من سمّع سمع الله به، ومن رايا رايا الله به » وفي حديث آخر « إن الله يأمر بالعبد إلى الجنة فيما يبدو للناس ويعدل به إلى النار »[2].

---

(١) النساء ١٤٢ ــ ١٤٣.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير ص ٤٥٠ م ١

وفي الآية الكريمة أعلاه يبرز الله سبحانه وتعالى ـــ أخطر صفات المنافقين التي استحقوا بها الدرك الأسفل من النار فهم مخادعون، متراخون عن الصلاة رأس أركان الإسلام، مراؤون مداهنون، فيهم غباوة من عدم التذكر والاستفادة، لا موقف لهم يوضح هويتهم كعباد لله مخلصين له الدين، وأخيراً ترديهم بغضب الله يتقلبون بجحيمه أنى اتجهوا. أما قوله تعالى فيهم ﴿ **وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى** ﴾ فهي صفة لهم في أشرف الأعمال وأفضلها، يقومون إلى الصلاة ـــ إذا قاموا ـــ وهم كسالى لأنهم لا نية لهم فيها ولا إيمان لهم بها ولا خشية، يتمطون إليها تمطي العاجز ـــ وهم يعلمون ما قاله الله ورسوله وأصحابه فيها وفيهم ـــ لا يخشعون فيها ولا يدرون ما يقولون، وإنما هي حركات يؤدونها يرفعون بها عتباً أو لوماً ممن حولهم، منسحبين من خيرها وثوابها. عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ : « تلك صلاة المنافق، تلك صلاة المنافق، تلك صلاة المنافق، يجلس يرقب الشمس حتى إذا كانت بين قرني الشيطان قام فنقر أربعاً لا يذكر الله فيها إلاّ قليلاً ». وقد ورد في أحاديث كثيرة أن المنافقين يتعمدون الصلاة التي يرون فيها ويتراخون عن تلك التي تكون في الظلمة (العشاء والصبح) فغرضهم الأول والأخير مراآة الناس وتسجيل ذلك عندهم، ومواقفهم هذه كانت تهز الرسول هزاً فيقول عليه الصلاة والسلام : « إن أثقل الصلاة على المنافقين صلاة العشاء وصلاة الفجر ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما حبواً ولقد هممت أن

آمر بالصلاة فتقام ثم آمر رجلاً فيصلي بالناس ثم انطلق معي برجال معهم حزم من حطب إلى قوم لا يشهدون الصلاة فأحرق عليهم بيوتهم بالنار »[1]. وفي رواية أخرى « والذي نفسي بيده لو علم أحدهم أنه يجد عرقاً سمينا أو مرماتين حسنتين لشهد الصلاة، ولولا ما في البيوت من النساء والذرية لحرقت عليهم بيوتهم بالنار ». ولهذا كله حرم الله المنافقين من أبسط ما منحه للمؤمنين وهو الصلاة عليهم بعد موتهم جزاء بجرمهم، فمن لا يصلي لا يصلىٰ عليه، ومن لا يذكر الله مخلصاً لا يستحق الدعاء له من رسول الله والمؤمنين، ومن يستهتر بأحكام الله سراً على المؤمنين أن يستهتروا به جهراً. والله سبحانه وتعالى عندما قال : ﴿ **ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره** ﴾ فإنما يريد أن يوضح لعباده أن الصلة مقطوعة بين الإيمان والمنافق، يريد سبحانه من عباده أن يتخلوا عنه لأنه تخلى هو عنه، ومن تخلى الله عنه فيا بؤس العاقبة ويا سوء المصير، ومن أجل ذلك قطع الله الطريق على شفعائه فأمر رسوله بعدم الصلاة عليه والوقوف على قبره للدعاء له لأنه لن يقبل فيه شفاعة ولا رجوا.

أما قوله تعالى ﴿ **مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء** ﴾ ففيه يبين سبحانه أوضح صفات المنافقين وهي الشك الذي يعيشونه والتردي في وسط الطريق قبل الوصول،

---

(١) الجامع الصحيح ص ١٢٣

فهم ليسوا بمؤمنين مخلصين ولا مشركين مصرحين بالشرك يعيشون حالة من الضلال والتيه، والضلال نوع من أنواع الكفر. فعن قتادة قال : — ذكر لنا أن نبي الله ﷺ كان يضرب مثلاً للمؤمن وللمنافق وللكافر كمثل رهط ثلاثة رفعوا إلى نهر فوقع المؤمن فقطع، ثم وقع المنافق حتى إذا كاد يصل الى المؤمن ناداه الكافر : أن هلم ألي فإني أخشى عليك، وناداه المؤمن : أن هلم إلى فإن عندي وعندي — يحصي له ما عنده — فما زال المنافق يتردد بينهما حتى أتى عليه الماء فغرقه، وإن المنافق لم يزل في شك وشبهة حتى أتى عليه الموت وهو كذلك. وقال أيضاً : كان النبي ﷺ يقول « مثل المنافق كمثل ثاغية بين غنمين رأت غنماً عل نشز فأتتها وشامتها فلم تعرف، ثم رأت غنماً على نشز فأتتها فشامتها فلم تعرف »[1] وتأتي بعد ذلك النهاية الساحقة الماحقة ﴿ **ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا** ﴾ حيث يتركهم جل وعلا في طغيانهم وضلالهم يتخبطون كما تتخبط البهائم، لأنهم رفضوا الهداية وركبوا الطريق المعوج، وهذه عقوبة لا تدانيها عقوبة لأنها خزي وعذاب وألم واحتقار في الدنيا، وقهر وندم ودرك أسفل في الآخرة.

وخروج المنافقين من الصف أمر قديم ومكشوف، فقد خرجوا عن صف الرسول ﷺ وكشفوا ظهره للأعداء في عدة مواقف، وهم يخرجون من كل صف في وقتنا الحاضر — ألم يخرج بعضهم من الصف في الحرب الأولى مع اسرائيل، ألم

(١) مختصر ابن كثير م٢ ص ٤٥١

يخرجوا من الصف في حرب حزيران ووقفوا موقف المتفرج ؟ ألم يترك المجندون من بعض الفرق الباطنية أسلحتهم على الأرض غنيمة للعدو ويولوا الأدبار في حرب حزيران ؟. ألم يجند بعضهم نفسه جاسوساً للعدو يفتح أعينه على مواضع الضعف والخطر كرها وحقداً على الإسلام والمسلمين وطمعاً في منزلة عنده ؟ ألم يتخلف عن الزحف وينسحب منه كثيرون بحجة عدم الاستعداد ؟ وما ذلك إلاّ لإضعاف القوة واعطاء العدو الفرصة الرابحة، والحقيقة أن عدم الاستعداد ذلك حجة وتحايل وفرية لأنهم لو أرادوا الاستعداد للخطة الحاسمة لفعلوا ﴿ **ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين، لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلاّ خبالا ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم والله عليم بالظالمين** ﴾[١] وصدق الله العظيم، فهذا ما فعلوه عندما ثبطوا وتجسسوا وفرقوا وانسحبوا، وكشفوا جوانب من الجيوش فبانت للعدو عوراتها وضرب أهدافه فيها. فكانوا بذلك قوة للعدو في قلب جيوشنا بدلاً من أن يكونوا قوة للأرض التي يعيشون عليها ويتنسمون هواءها ويأكلون من خيرها ويستظلون بأفيائها !. ولم لا وهم كفار فجرة لا يريدون بالإسلام وأهله وأرضه إلاّ عظيم السوء ﴿ **إن تصبك حسنة تسؤهم وإن تصبك مصيبة يقولوا قد أخذنا أمرنا من قبل ويتولوا وهم فرحون** ﴾[٢] ومهما حلفوا ومهما أظهروا ومهما وعدوا هم

(١) التوبة ٤٦ ــ ٤٧.
(٢) التوبة ٥٠ ــ ٥١.

كاذبون متحايلون، فهل يكذبون على الله الذي هو كاشفهم ومطلع على سرائرهم لا تخفى عليه مما يدسون خافية ؟. ولو صدقوا في إيمانهم ووعودهم لاتقوا الله وساروا ضمن منهجه وطريقه الذي ارتضاه لعباده، ولكنه الكفر والخزي العظيم ﴿ **يحلفون بالله لكم ليرضوكم والله ورسوله أحق أن يرضوه إن كانوا مؤمنين، ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله فأن له نار جهنم خالدا فيها ذلك الخزي العظيم** ﴾[1] ألم يحلفوا بأنهم سيطلقون الحرية المرضية لشعوبهم ؟ ألم يحلفوا أنهم سيحكمون بما يرضي الله ؟ ألم يحلفوا بأنهم لن يروعوا مواطناً مسلماً ؟. ولكنهم غدروا مع حلفانهم فظلموا واضطهدوا وسجنوا وقتلوا، وهتكوا الحرمات والأعراض وخربوا البيوت العامرة على رؤوس أصحابها لأن أصحابها يقولون لا إله إلاّ الله محمد رسول الله، ألم يفقؤوا العيون ويذلوا النفس المؤمنة وييتموا الأطفال ويرملوا النساء ويتركوا شعوبهم تتيه فلا تعرف طريقاً للنجاة ؟. ألم يسلطوا زبانيتهم من سقط المنافقين على أموال وأعراض المسلمين بغرض اذلالهم وإهداء الفرحة لأعدائهم ؟!. لقد تمسكنوا حتى تمكنوا ـــ وهذا سبيل النفاق ـــ ثم تربعوا على عروشهم وتابعوا نفاقهم فرفعوا أصواتهم بأنهم حماة الإسلام والمسلمين، أفواههم تبتسم زوراً وخناجرهم تغوص عميقاً في قلوب المؤمنين. ويأملون بعد ذلك أن يسموا مؤمنين، خاب فألهم وشاهت وجوههم، فالله سبحانه وتعالى وضع أمامنا مقارنة عظيمة ـــ وفي موضع واحد

---

(١) التوبة ٦٢ ـــ ٦٣.

ـ بين المؤمنين والمنافقين ليضيء لنا ظلمة افتعلوها فنعرفهم على حقيقتهم، وليعرفوا هم أنفسهم خفافيش تتراقص في الظلام سيبهرها نور الله الكاشف ويقتلها وعده الصادق حينما يقول الكافر يا ليتني كنت ترابا.. فقال تعالى في تلك المقارنة الكاشفة : ﴿ **المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم نسوا الله فنسيهم إن المنافقين هم الفاسقون، وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم خالدين فيها هي حسبهم ولعنهم الله ولهم عذاب مقيم** ﴾[١].

هذا وصف الله للمنافقين ووعيده لهم. أما المؤمنون فيقول فيهم جل جلاله : ﴿ **والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله ـ أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم، وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة في جنات عدن ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم** ﴾[٢].

هنا الاستقامة، والانضباطية، والتناصح، وحب الخير، والالتزام بأوامر الله والتوقف عند حدوده، فلهؤلاء الرحمة والسمعة الطيبة الحميدة في الحياة الدنيا، والحياة الأبدية الرغدة والعيش

---

(١) التوبة ٦٧ ـ ٦٨.

(٢) التوبة ٧١ ـ ٧٢.

الهنيء في الآخرة. وهناك التلوي والتباغض والمكر والغضب الذي سيلف به الله أصحاب هذا المنهج، وفي النهاية نار حامية تشوي وجوههم خالدين فيها وبئس المصير. ـــ اللهم نجنا من شرورهم واجعل كيدهم في نحورهم، واكشف وجوههم ومسالكهم للمؤمنين المتقين ليسيروا بدينك على النهج القويم المستقيم آمنين مطمئنين، إنك أنت السميع المجيب.

هاتف الإدارة: ٤٥٨١١٥٨-٤٥٧٢٥٣٧ — هاتف المصنع ٤٩٨٣٣٩٢

المحل ٤٦٦ ٢٠٢ عليكان — ص.ب ٢٦٧٠ [illegible] المملكة العربية السعودية